سلسلة كتاب العميد

(٩)

البلاغة في الإبلاغ

نصوص الإمام زين العابدين عليه السلام مثالاً

البلاغة في الابلاغ : نصوص الامام زين العابدين عليه السلام مثالا.-الطبعة الاولى.-
كربلاء، العراق : العتبة العباسية المقدسة، مركز العميد الدولي للبحوث والدراسات، قسم النشر،
١٤٤٤ هـ. = ٢٠٢٢.
١٤٤ صفحة ؛ ٢٤ سم. (سلسلة كتاب العميد ؛ ٩)
يتضمن إرجاعات ببليوجرافية
1. علي زين العابدين، علي بن الحسين بن علي (عليه السلام)، الامام، ٣٨-٩٥ هجري. ٢.
اللغة العربية--بلاغة. أ. العنوان.

LCC : BP193.14.A3 B35 2022
مركز الفهرسة ونظم المعلومات التابع لمكتبة ودار مخطوطات العتبة العباسية المقدسة
فهرسة اثناء النشر

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٣٧٠٣) لسنة ٢٠٢٢

ISBN: 978-9922-680-26-2

العنوان: البلاغة في الابلاغ نصوص الإمام زين العابدين عليه السلام مثالاً
سلسلة كتاب العميد (٩)

النَّاشر: العتبة العبَّاسية المقدَّسة – مركز العميد الدولي للبحوث والدراسات – قسم النشر

الإشراف العام: أ.د. شوقي مصطفى الموسوي

المتابعة والتنفيذ: رضوان عبد الهادي السلامي – م.م.ضياء محمد حسن

الادارة الفنية: م.م علي رزاق خضير

الإخراج الطباعي: احمد نعمة

تصميم الغلاف: علي طالب

عدد النّسخ: ٢٥٠

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ – ٢٠٢٢م

حقوق النَّشر والتَّوزيع محفوظة للعتبة العبَّاسية المقدَّسة
مركز العميد الدولي للبحوث والدراسات.

الرمز البريدي للعتبة العباسية المقدسة: ٥٦٠٠١

رقم صندوق البريد (ص.ب): ٢٣٢

بسم الله الرحمن الرحيم
﴿ وَلْيَعْفُوا
وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ
لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾
صدق الله العلي العظيم
سورة النور، الآية: ٢٢.

كلمة المركز ٩

فلسفة الاحياء عند الامام علي بن الحسين عليه السلام..... ١١

ملخص البحث ١٢
الفصل الاول : ١٤
مشكلة البحث: ١٤
التمهيد..... ١٦
اولاً :مفهوم (الحياة)..... ١٧
ثانياً :عصر الإمام الحسين عليه السلام ١٧
الفصل الثاني: ٢٨
المبحث الاول:.....٢٨
الحياة المادية للفرد ومومات احيائها.....٢٨
المبحث الثاني:.....٣٧
الحياة المعنوية للفرد ومقومات احيائها:.....٣٧
المبحث الثالث :.....٥١
حياة المجتمع ومقومات احيائها: ٥١
الخاتمة والنتائج : ٦٨
المصادر: ٧٠

في اسلوبية النص السجادي المناجيات وادعية الايام مثالا :.....٧٧

ملخص البحث ٧٨
المقدمة ٧٩
المستوى الصوتي ٨٢
اولاً:التكرار الاستهلاكي: ٨٢

ثانياً :تكرار العبارة: ٨٧
المستوى التركيبي:.....٩١
اولاً : الامر:.....٩٢
ثانياً : الذكر والحذف: ٩٦
المستوى الدلالي ١٠١
الهوامش : ١٠٩
المصادر والمراجع ١١٢

استهلالات مطالع ادعية الصحيفة السجادية للامام زين العابدين ﷺ دراسة تحليلية ١١٥
ملخص البحث.....١١٦
المقدمة ١١٧
الدراسة التحليلية ومعالجتها ١١٩
مفردة استهلال المطلع وموضوعة الدعاء: ١١٩
اثر موضوعة الدعاء ومناسبه في مطلع الاستهلال:.....١٣٠
الفاصلة في مطلع الاستهلال :..... ١٣٤
الخاتمة : ١٣٩
الهوامش: ١٤٠
المراجع:.....١٤٣

كلمة المركز

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآل بيته الطيبين الطاهرين، وبعد ... يطل قسم النشر في مركز العميد الدولي للبحوث والدراسات بإصدار جديد على القارئ الكريم وفيه مجموعة من الباحثين ، حاملين افكارهم ورؤاهم لتكون في عناق علمي مع عقول الراغبين في الاستزادة من الدرس المعرفي، والنهل من الالماعات البحثية، التي تجود بها أقلام الباحثين والدارسين المشاركين في الاصدار الحالي الذي اكتنز مجموعة من البحوث والدراسات التي تقع في محور مهم يتعلق بالمنجز الثقافي للأمام علي السجاد بن الحسين بن علي بن أبي طالب صلوات الله عليهم اجمعين، والذي اشتمل على ثلاثة أبحاث تعنى بنص الامام السجاد عليه السلام من زوايا متعددة، والذي جاء بعنوان : البلاغةُ في الإبلاغِ...

نصوصُ الإمامِ زينِ العابدين عليه السلام مثالاً.

وبالتالي يحاول قسم النشر في الاَصدار الحالي واللاحق ، تقديم بحوث في اصدارات تتخصص في قضية ما بحيث يجد الباحث فرصة لان يتولى مع اقرانه من الباحثين التنقيب في تلك القضية ورصدها من اكثر من زاوية و بما ينسجم مع اشتراطات النشر في مركز العميد الدولي علمياً ومنهجياً واجرائياً.. لتقديم خدمة حقيقة علمية ، وأن يكون مكللاً ببركات هذهِ البقعة المشرفة والمنازل المقدسة طلبة القائمين عليه. وآخر دعوانا أن الحمدلله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الأكرمين .

مركز العميد الدولي للبحوث والدراسات

قسم النشر

فلسفة الاحياء عند الامام علي بن الحسين عليه السلام

أ.م.د. رزاق عبد الامير مهدي الطيار

جامعة الكوفة

كلية التربية الاساسية

قسم اللغة العربية

ملخص البحث

ينطلق البحث من قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ فدعوة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم كانت تهدف إلى إحياء البشر، ومن المؤكَّد أن دلالة لفظ (الإحياء) هنا لم تكن بالمستوى الأولي للمفردة الذي يقابل (الموت) بمعنى العدم، بل المراد به معنى ثانوي مجازي، هو أن يتمكن الإنسان من التحرر من العبودية المطلقة، وينطلق في فضاء الحرية والانعتاق، ليسمو في مراتب الوجود محققا معنى الخلافة الإلهية الحقَّة .

إن مقام الخلافة الإلهية يقتضي أن يتعامل الإنسان مع المخلوقات بمسؤولية واعية، فقد ولَّاه الله تعالى على مخلوقاته، وسلطه عليها، وسيَّرَها طوعَ تصرفه ، لينظر في صُنعِ خَليفَتِه، وعلى الإنسان أن يتصرف في ما أولاه الله من النعم بحكمة وتقدير ،فلا إفراط ولا تفريط، فالحياة لا تستقيم إلا إذا تمكن الإنسان من تحقيق التوازن الحكيم بين رغبات النفس البشرية ومتطلبات الحياة الحرة الكريمة .

كانت دعوة النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم تسعى لتحقيق هذا الهدف، وقد اعتمدت على مقومات وأسس معينة للنهوض بالبشر وإحيائهم بعد أن كانوا أمواتا. ولقد سار أئمة الهدى من أهل بيته المعصومين عليهم السلام على نهج خاتم الأنبياء فرسَّخوا تلك الأسس، وساروا في ذلك النهج السماوي، سعيا منهم لإحياء الإنسان، وعمارة الأرض، وخلافة السماء ، وقدموا في سبيل ذلك التضحيات الجسام .

لقد مرَّت على الأمة الإسلامية بعد استشهاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حقبة زمنية شديدة الوطأة تراجعت فيها القيم الاجتماعية إلى العرف الجاهلي القائم على استعباد الأقوياء للضعفاء والاستحواذ على الثروات والعبث بدين الله بما ترتضيه أهواء المتسلطين على مقاليد الحكم، فماتت السنن وانتعشت البدع، وتعرض الدين لخطر داهم، أوجب على الإمام الحسين عليه السلام النهوض بثورة كبرى ليعيد الحق الى نصابه ويفضح الكاذبين، ولقد كان ثمن تلك الثورة استشهاده ومن معه ،وكانت السنون التي أعقبت

واقعة كربلاء تمثل صراعا داخليا في جسد الأمة التي كانت تتنازعها الأهواء والفتن . في تلك المرحلة الحرجة من عمر الأمة الإسلامية قام بأمر الإمامة والخلافة الإلهية الإمام علي بن الحسين عليه السلام وكانت الأمة في مرحلة احتضار مدني واجتماعي وتقهقر معرفي فما كان منه عليه السلام إلاَّ أن ينهض لإحيائها من جديد متبعا تلك الأسس والمقومات التي خطها لهم جدهم المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم .

يسعى هذا البحث لتلمس فلسفة الإحياء عند الإمام زين العابدين عليه السلام محاولا تحديد مقومات إحياء الفرد والمجتمع موضحا معنى الإحياء في الدعوة الإلهية ،ومكانة الفرد في المجتمع، ومسؤوليته في التعامل مع خَلْقِ الله، وعلاقته بالبشرية وتطويرها، ويحاول البحث تحديد الأولويات وترتيب تلك المقومات في سلم (المهم والأهم) معتمدا في ذلك على ما توافر من سيرة الإمام علي بن الحسين عليه السلام ورسائله وأدعيته وأحاديثه في المصادر المعتمدة من كتب التراجم والسير والتاريخ والحديث .

الفصل الاول

مشكلة البحث

لما كان الإنسان مركبا من قوى الخير وقوى الشر، فالصراع لازمة من لوازم وجوده على هذه الأرض، ولما طال العهد به بعد نزوله من الجنة انحرف بعض أفراده عن الفطرة السليمة، وأخذ يحيد عن المنهج السماوي، ويبتعد عن طريق الخلافة الإلهية التي يمثلها الإنسان على سطح الأرض، فما كان من الخالق البارئ إلا أن يلطف بهذا المخلوق، فيرسل إليه الرسل من أنبيائه واحدا تلو الآخر، ليرجعوا البشرية إلى ماشرعه الله تعالى من الشرائع والقوانين القائمة على أساس التوحيد والربوبية والعبودية لله تعالى وحده، ثم تعليم الناس وتعريفهم بحقيقة أمرهم من مبدئهم إلى معادهم، وتذكيرهم بأن وجودهم على الأرض ليس عبثا، وأنهم يجب أن يسلكوا في هذه الدنيا حياة تنفعهم في غد، وأمرنا تعالى أن نستجيب لدعوة الرسل لأنهم يدعون دوما إلى ما فيه حياة البشرية.

قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[1]، فدعوة الرسل قائمة على أساس (الإحياء) أي إعادة الحياة لأشياء قد أُميتت ،وفلسفة (الإحياء) هذه تشمل حياة الإنسان بكل تفاصيلها، بل تتعداه إلى بيئته ومحيطه، فهو مسؤول عنهما بحكم ولايته وخلافته لله تعالى، وقد وهبه الله تعالى الأدوات اللازمة لعمارة بيئته ومحيطه، قال تعالى ﴿أَوَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ ماكانُوا يَعْمَلُون﴾[2]، وقال تعالى ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾[3].

إذن (الإحياء) أساس من أسس الدعوة السماوية التي جاء بها الرسل وخاتمهم نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم و(الإحياء) متعدد المستويات ومتنوع الطرق ولكن مجموعه يضمن للإنسان حياة دائمية منعمةفي الدارين.

ثم إن لكل رسول خلفاء على شرعه توكل لهم مهمة رعاية شريعته وإتمام ما بدأه وكذلك حال نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم فقد وَكَلَ أمرَ رعاية أمته إلى خلفائه الأئمة المعصومين ،وقام كل منهم بما يجب عليه في وقته وعصره بما حفظ لنا الدعوة المحمدية وحماها من الاندثار أو الانقلاب، ويحاول هذا البحث تلمس (فلسفة الإحياء) في تراث إمامنا زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام في مستوياتها المتعددة، وقد اختار البحث عصر الإمام زين العابدين عليه السلام لأنه من أكثر الأوقات التي مرت على المسلمين حرجا وانتكاسة، فقد تمكن الحزب الأموي من الاستيلاء على السلطة في المجتمع الإسلامي، وأخذ يرجع بالمجتمع إلى الجاهلية في أعرافه وتقاليده، فضلا عن تحريفه لدين الله الذي جاء به خاتم أنبيائه صلى الله عليه وآله وسلم وهنا يتضح معنى (الإماتة) فقد أُميت الدين وأحييت البدع، فكان لزاما على حراس العقيدة وحماتها أن يمارسوا (الإحياء) بكل اتجاهاته لمقاومة الإماتة وهذا ما يحاول البحث بيانه.

التمهيد

أولا: مفهوم (الحياة)

جاء في المعجم الحياة: نقيض الموت، وحَيي يَحْيَا فهو حَيٌّ، أي صار ذا حياة ،والحَيُّ من كل شيء: نقيضُ الميت، والجمع أَحْياء. والحَيُّ: كل متكلم ناطق .

والحيُّ من النبات: ماكان طَرِيّاً يَهتَزّ[٤]. وقد تستعمل استعمالا مجازيا؛ فكلمة (الأحياء) في قوله تعالى ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلَا الأَمْوَاتُ﴾[٥]، فسرها ثعلب فقال: «الحَيُّ هو المسلم والميت هو الكافر» في حين قال الزجاج: «الأَحْياءُ المؤمنون والأَموات الكافرون؛ ودليل ذلك قوله تعالى ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَايَ شْعُرُونَ أَيَّا يُبْعَثُونَ﴾[٦]، وكذلك قوله تعالى ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾[٧]؛ أَي من كان مؤمناً وكان يَعْقِلُ ما يُخاطب به، فإن الكافر كالميت»[٨]. وجاء في (موسوعة المورد) ما نصه «الحياة Life: خاصية تميز الحيوانات والنباتات عن الأشياء غير العضوية وعن المتعضيات الميتة»[٩]. وقد يبدو هذا التعريف غير شاملا؛ إذ لا يُبيِّن حقيقة الحياة؛ ولعلَّ مردَّ ذلك إلى أن ظاهرة (الحياة) لا تزال تنتظر من يعرفها تعريفا كاملا بعيدا عن السذاجة. وقد نستطيع أن ندرك معنى (الحياة) إذا حددنا أهم صفات الكائن الحي، إذ يتميز الكائن الحي على وجه العموم بأنه غير ساكن Static وبأنه يتكيف معالبيئة، وبانه يخضع لتغير داخلي مستمر. ومن أبرز مظاهر هذا التغير: النمو ،والحركة، والتوالد أو التناسل، والأيض أو الاستقلاب Metabolism، والتأثيرية أو قبول الإثارة irritability، ولكن هذه الصفات تتميز بها الحيوانات العليا في المقام الأول فتجعلها تستجيب لمختلف المنبهات أو المؤثرات[١٠].

ولم يكن تعريف معجم (الصحاح في اللغة والعلوم) لمفهوم الحياة ببعيدعن هذا التعريف إذ يعرف: «الحياة – Life: بأنها مجموع ما يشاهد في الحيوانات والنباتات من مميزات تفرق بينها وبين الجمادات مثل التغذية والنمو والتناسل وغير ذلك»[١١]. ويبدو أنَّ هذين التعريفين هما تعريفان باللازم، كما يقول المناطقة، وهما خاصان بالأحياء من

الممكنات، ولا ينطبق هذان التعريفان على واجب الوجود حينما يوصف بأنه (الحيُّ)؛ إذ أنَّها في حقه تعالى تختلف عنها في حقنا، وذلك أن حياتنا يدركها الموت فيبطلها. أما في حقه تعالى فحياته لا يدركها موت ولا يلحقها فناء[١٢]، يقول الطباطبائي: «إن الحياة الحقيقية يجب أنْ تكون بحيث يستحيل طرو الموت عليها لذاتها، ولايتصور ذلك إلابكون الحياة عين ذات الحي غير عارضة لها ولاطارئة عليها بتمليك الغير وإفاضته، قال تعالى ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾[١٣]، وعلى هذا فالحياة الحقيقية هي الحياة الواجبة، وهي كون وجوده بحيث يعلم ويقدر بالذات»[١٤].

إن مفهوم الحياة يماثل مفهوم الوجود في أنه أعرف من أن يُعرَّف، وهذا هو شأن أكثر المفاهيم التي تدرك بالوجدان إدراكا فطريا، فإنها مما تستحضرها الأذهان ويعجز عن تعريفها البيان، وننتهي من هذا إلى أن مفهوم الحياة هو ما يحضر في أذهاننا من معنى ومدلول عند سماعنا لكلمة (حياة). أما معنى (الإحياء) في هذا البحث فهو ضد مفهوم الإماتة وهو أن تعيد الحياة لمن فقدها وحتما سيكون المعنى هنا مجازي قد يشمل الأشخاص أو المجتمعات، وحتما ليس المقصود إعادة الحياة لشخص فقدها على نحو ما كان يفعل نبي الله عيسى عليه السلام وهذا ما سيتبين في صفحات البحث القادمة بإذنه تعالى.

ثانيا: عصر الإمام علي بن الحسين عليه السلام

لقد كانت سنوات حياة الإمام علي بن الحسين عليه السلام السبع والخمسين الممتدة بين سنة ولادته عام ثمانية وثلاثين من الهجرة النبوية وسنة وفاته عام خمس وتسعين من أصعب السنوات التي مرت بالمسلمين بعد وفاة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله؛ إذ اتسم عصر الإمام زين العابدين عليه السلام باضطراب سياسي، واجتماعي، واقتصادي، لم يشهده عصر من قبله؛ فقد شحن بالفتن الفظيعة والأحداث الجسام مما جعله يفقد روح الاستقرار والطمأنينة، ويعيش في دوامة من القلق والقتل والتشريد والتجويع. لقد أمعن الحكم الأموي في نشر الظلم والاضطهاد، فأرغم الناس على ما يكرهون حتى بات كل فرد منهم مضطربا، لما يساوره من الهموم والآلام.

إنَّ الإحاطة بمعالم الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي كانت تحيط بالإمام زين العابدين عليه السلام تعطينا صورة واضحة للمواقف التي كان يتعامل معها الإمام وسياسته في التعامل مع تلك الأحداث وتساعدنا كثيرا على فهم شخصية الإمام ع ودوره الإحيائي للمجتمع.

عاصر الإمام علي زين العابدين عليه السلام مجموعة من الحكام الأمويين: يزيد بن معاوية، ثم معاوية بن يزيد، ثم مروان بن الحكم، وعبد الملك بن مروان، ثم الوليد بن عبد الملك بن مروان، ومن الولاة: الحجاج بن يوسف الثقفي، وعبيد الله بن زياد، وهشام بن اسماعيل والي المدينة. وكل هؤلاء اشتهر عتهم الظلم والاستهتار بمحارم الله وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق.

لقد تأطرت حياة الإمام عليه السلام بسلسلة من المآسي؛ فقد استقبل سنته الثانية باستشهاد جده أمير المؤمنين عليه السلام بعد صراع مرير مع الباطل الذي مثله معاوية بن أبي سفيان رأس الحزب الأموي الظالم، وشاهد الإمام زين العابدين عليه السلام بعينه كيف تقاعس أهل العراق عن مناصرة عمه الإمام الحسن عليه السلام حتى عقد الصلح معمعاوية مكرها وسرعان ما اكتوى بوفاته عليه السلام مسموما، وله من العمر يومئذ عشر سنين، ولَّما بلغ الإمام السنة الثانية والعشرين توجت المآسي حياته بفاجعة كربلاء التي فقد فيها الإمام عليه السلام أبيه، وأخوته وخيرة أهل بيته والخلص من شيعتهم، ورأى مقتلهم واحدا واحدا، ورأى سبي النساء، وتحمَّل ثقل القيود ومجابهة يزيد وعبيد الله بن زياد، والأمة التي خذلتهم وتفرجت على قتلهم ثم عادت فبكت عليهم نادمة تائبة، وهكذا نرى أن الإمام عليه السلام ترعرع في مناخ من الصراعات والمحن والحروب ومكابدة الظلم والعدوان.

اصطبغت الحياة السياسية في عصر الإمام السجاد عليه السلام بألوان من القلق والاضطراب، فقد خيم الذعر والخوف على الناس وفقدوا الأمن والاستقرار بكل أشكاله، مما سبب تفكك المجتمع وشيوع الأزمات السياسية الحادة، واندلاع الثورات المتلاحقة. والسبب الأول والأخير في كل هذه الأحداث المؤلمة يعود إلى طبيعة الحكم الأموي والفساد الذي استشرى في البلاد.

ومن أبرز مظاهر هذا الحكم الظالم[١٥]:

الجور والاستبداد

إذ استبد الأمويون في حكمهم الشعوب الإسلامية وجاروا كثيرا، فلم يكن هناك قانون تسير عليه الدولة، وإنما كان حكما مزاجيا يخضع لمشيئة ملوكهم ورغباتهم، وأهواء وزرائهم وعواطف ولاتهم. حتى قيل في وصفه: «إن نظام الحكم في عهد ملوك الأمويين لم يكن إلا ما نسميه في لغة العصر بـ (نظام الأحكام العرفية) ،هذا النظام الذي يدر الدماء، ويرفع التعارف على المنطق القانوني، ويدد كل امرىء في وجوده»[١٦] لقد أصبح الاستبداد السياسي الظاهرة البارزة في الحكم الأموي اتخذفيه الملوك الأمويون، منهجا خاصا، انهارت بسببه قواعد العدل السياسي ومبادىء الحرية الاجتماعية.

الإرهاب والتجويع

استعمل الحزب الأموي سياسة التجويع والإرهاب الاقتصادي، فقد كتب معاوية إلى عماله كتابا واحدا إلى جميع البلدان: «انظروا من قامت عليه البينة أنه يحب عليا وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه»...[١٧] فحارب الناس في أقواتها ومنعها من عطائها ليجوع كل من يعارضه سياسيا وفكريا، ثم أتبع ذلك بكتاب آخر قال فيه: «من اتهمتموه ولم تقم عليه بينة فاقتلوه فقتلوه مع ليال تهموا لظنو الشبه تحت كل كوكب حتى لقد كان الرجل يسقط بالكلمة فيضرب عنقه ولم يكن ذلك البلاء في بلد أكبر ولا أشد منه بالعراق ولاسيما بالكوفة»[١٨] فاستعمل عليهم زياد بن سمية وضم إليه البصرة، فكان يتتبع الشيعة وهو بهم عارف لأنه كان منهم أيام علي عليه السلام فقتلهم تحت كل حجر ومدر وأخافهم وقطع الأيدي والأرجل ،وسمل العيون، وفعل بهم ما فعل.

القضاء عل الحريات العامة

لقد قضي على الحريات العامة في العهود الأموية ولم يعد لها أيظل على واقع الحياة، وبصورة خاصة حرية الرأي والقول، فبات أي فرد من المواطنين لا يستطيع أن يدلي برأيه، وبما يفكر به وبالأخص في ما يتعلق بالولاء لأهل البيت عليهم السلام، فكل من يتظاهر بحبهم والولاء لهم يتهم بالكفر والإلحاد والزندقة. وقد علقت في الساحات العامة في الكوفة مجموعة من جثث رجال الفكر والعلم في الإسلام قد صلبوا أياماعلى الأعمدة بسبب حبهم للإمام أمير المؤمنين عليه السلام كميثم التمّار ورشيد الهجري[١٩].

إحياء النزعة القبليَّة والعراف الجاهلية

عاد الحزب الأموي بالمجتمع إلى الأعراف القبلية الجاهلية وحاول معاوية بهذه السياسة إلهاء القبائل عن حكمه بالمشاكل الداخلية والخلافات القبلية، فكان يثير النزاعات بين مضر وربيعة والأزد، وازدهر الهجاء على ألسُنِ الشعراء في عهد بني أميَّة فهجا شاعر البلاط الأموي الأخطل، وهو نصرانيٌ، الأنصار بحضرة معاوية وبطلب منه للتنكيل بهم[٢٠].

وأخذ معاوية بإثارة الضغائن بين الأوس والخزرج وبث روح البغضاء والنفرة بين القبائل العربية فشغلت هذه القبائل بأحقادها الصغيرة عن مقارعة الظلم الأموي، وشغل زعماء هذه القبائل بالسعي عند الملوك الأمويين للوقيعة بأعدائهم القبليين، فكان معاوية وخلفاؤه حكاما بين رؤساء القبائل المتصارعين فيما بينهم على النفوذ والمكاسب المادية. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى: لقد أكرم الإسلام الإنسان وحارب العنصرية وشرَّع مبدأ التقوى بقوله تعالى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٢١]، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله في حجة الوداع: ((كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند ال أتقاكم، وليس لعربي عل أعجمي فضل إلا بالتقوى))[٢٢]، ولكن هذا المبدأ الذي يضع بلالا الحبشي وسلمان الفارسي وصهيبا الرومي على قدم المساواة مع زعماء الجاهلية لم يرق لبني أميَّة؛ لأنه يسلبهم زعامتهم

الجاهلية القائمة على البطش والظلم والجور، فلم يكن من معاوية إلاَّ إثارة النعرات الجاهلية من جديد بعد أن خبت، وأحياها بعدما ماتت في نفوس المؤمنين. فعمل على تعميقها وركز على التفرقة بين العرب والعجم. فقد«استدعى معاوية بن أبي سفيان الأحنف بن قيس وسمرة بن جندب وقال لهما: إني رأيت هذه الحمراء قد كثرت وأراها قد قطعت على السلف، وكأنهم أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان فقد رأيت أن أقتل شطرا وأدع شطرا لإقامة السوق ،وعمارة الطريق»[٢٣]، لقد سن معاوية اضطهاد الموالي، واخذت الحكومات التي تلت من بعده تشيع فيهم الجور والحرمان على الرغم من اشتراكهم في الميادين العسكرية وغيرها من اعمال الدولة، وكان هذا الموقف العدائي من الموالي سببا في امتهانهم وإرهاقهم وفصلهم عن المجتمع، ومثلت هذه السياسة قتلا لمبادئ الإسلام القائم على المساواة والعدل والتآخي وعدم التفرقة، وعودة بالمجتمع إلى الأعراف الجاهلية القائمة على التمييز العنصري غير العادل.

إقصاء دين الله وشريعته

لم يكن أبو سفيان وذريته ممن آمن بدين الله، ولكنه دخل الإسلام مرغما بعد فتح مكة، ولم تكن نفسه تطيب بذلك، فما كان منه ومن حزبه إلا التملص من دين الله وشريعة خاتم الرسل كلما وجدوا فرصة لذلك، ولقد جاهر أكثر ملوكهم بالكفر والإلحاد، ودفنوا مبادىء الإسلام وشرائعه، فشربوا الخمر، وانتهكوا الأعراض واغتصبوا الأموال وقتلوا النفس المحترمة وعاثوا في الأرض فسادا، وحاولا الانتقاص من شخص النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وذريته حتى بلغ الأمر أن يتشفى يزيد بن معاوية المعروف بفسقه وإلحاده وتنكره للمبادىء الإسلامية بأبيات ابن الزبعرى حينما وضع أمامه رأس الحسين عليه السلام قائلا:

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل

لست من خندف إن لم أنتقم من بني أحمد ما كان فعل[٢٤]

ولم يعد للقرآن وأحكامه أيّ وجود في أجهزتهم وإداراتهم، يقول نيكلسون:

«كان الأمويون طغاة، مستبدين، لانتهاكهم قوانين الإسلام وشرائعه، وامتهانهم لمثله العليا، ووطئها بأقدامهم»..[٢٥].

سياسة التجهيل

سعى الحزب الأموي إلى تجهيل الناس؛ لأن جهل الناس بالأمور يفقدهم المقاييس التي يقيسون بها الأشياء والأحداث، وهذا مما يفيد السلطة الغاشمة، إذ يتيح لها الفرصة بعدم مراقبة الناس لهم ومحاسبتهم على أخطائهم. وهذه السياسة الغاشمة شجعت الأمويين على نشر الجهل ولم يتموا بنشر العلم بين أفراد الأمة ،ولم يوضحوا أحكام الله كما هي على حقيقتها بل حرفوها واختلقوا الأحاديث الموضوعة، فبرز الأدعياء الجاهلون والمرتزقة المحترفون، وتوارى العلماء والمؤمنون عن الساحة، حتى أنا نجد أن سوق الكذابين والوضاعين وبعض من أسلم من أهل الكتاب قد راج وصاروا هم أهل العلم والمعرفة والثقافة للأمة حينما انضووا تحت لواء الحكام، كل هذه السياسات الخبيثة والمدبرة فعلت فعلها في المجتمع الإسلامي وضللت قطاعات واسعة من الأمة. حتى التبست أمور كثيرة في أذهان الناس ،واختلط الحق بالباطل وأثمرت سياسة معاوية حسب مخططها وآتت أكلها. حتى ولَّدت عند المجتمع (ازدواج الشخصية)[٢٦]، وذلك ما صوَّره الفرزدق للإمام الحسين عليه السلام حين لقيه في بعض الطريق فسأله عن أهل الكوفة فقال له: «قلوبهم معك وسيوفهم عليك»[٢٧].

قسوة ملوك بني أمية وطغيانهم وانحرافهم عن الإسلام

مما يميز عصر الإمام زين العابدين عليه السلام قسوة ملوك بني أمية وولاتهم، ولقد كانوا في هذا الوقت في أوج شدتهم وطغيانهم وجبروتهم،ويشهد التاريخ بأنهم أشد الناس قسوة وأكثرهم انحرافا عن الإسلام، ولقد ذكرنا آنفا أسماء الملوك والولاة الذين عاصرهم الإمام عليه السلام، وفي عهدهم حصلت كل تلك الموبقات مما يتز لعظيم خطرها العرش، وتبكي لشدة هولها سكان السماوات والأرضين، فقد قتلوا أشرف الناس أما وأباسبط النبي

وريحانته الحسين بن علي عليه السلام، وسبيت المدينة في عهدهم وانتهكت أعراضها، وهدمت الكعبة ورميت بالمجانيق، ولم تبق حرمة من حرم الله لم تنتهك. ويزيد الخمار السكير كان صاحب جوار وكلاب وقرود ومنادمة على الشراب. والحجاج بن يوسف الثقفي كان ظالما غشوما أهلك الحرث والنسل وتطاول على الصحابة الشرفاء والأفاضل من العلماء، هذان نموذجانمن أعتى الناس الذين عاصرهم الإمام زين العابدين عليه السلام[٢٨].

انتشار التمايز الطبقي والإفراط فيه

شهد العصر الأموي تدهورا كبيرا في الحياة الاقتصادية العامة؛ إذ كانت جلُّ مرافقها مشلولة ومضطربة؛ فالزراعة التي تمثل العمود الفقري في البلاد قد ضعفت كثيرا، بسبب الفتن والاضطرابات الداخلية، وإهمال الدولة لمشاريع الري، وإصلاح الأرض والنظر في حاجات المزارعين. فنجم عن ذلك مجاعة عامة في البلاد أصابت معظم الطبقة العامة من السكان. وارتفعت أسعار السلع وخلت معظم البيوت من حاجات الحياة، وأصبحت بطون الناس خاوية وأجسادهم عارية. وكانت الناس عامة يعيشون حياة بائسة لا تعرف السعة ولا الرخاء[٢٩].

وعلى الجانب الآخر انغمس ملوك الأمويين وولاتهم بالنعم والترف، فقد كانوا يتصرفون بخزينة الدولة بوصفها ملكا لهم وهم يتصدقون على من يشاؤون من الناس، وقد ذكر المؤرخون أشياء كثيرة عن ترفهم وملابسهم ومصاريفهم فكان بعضهم يلبس الثوب الذي قيمته مئات الدنانير الذهبية ويلبس القمصان التي يزيد سعرها على ألفي درهم فضي وكل ذلك يدلُّ على ترفهم الكبير وتلاعبهم باقتصاد الأمة وثرواتها وبعدهم عن تعاليم الإسلام السمحة العادلة[٣٠].

وأسرف الأمويون في هباتهم للشعراء، ومحرفي الكلم عن مواضعه، فأجزلوا لهمالعطاء ليقطعوا ألسنتهم وينطقوا بفضلهم. فالأحوص، شاعرهم، نال مرة مائة ألف درهم، ونال مرة أخرى عشرة آلاف دينار[٣١]، والأخطل شاعر البلاط الأموي، وخاصة عبد الملك بن

مروان، أثرى بمدحه لهم إلى حد التخمة وتنقل لنا كتب الأدب كثيرا من أخبارهم معهم وهباتهم لهم الأموال حتى أنهم يكيلون له الأموال بالقصاع ولا تعدُّ عدا[٣٢].

وليس بعيدا عن ذلك هباتهم للمغنين والمغنيات، فقد أغدقوا عليهم بالجوائز والهبات مما دعاهم للتوافد على حكام بني أميَّة من شتى البلدان.فقد أعطى الوليد بن يزيد معبدا المغني اثني عشر ألف دينارا، واستقدم مغني الحجاز ومغنياتها جميعهم ،وأسرف عليهم ببذل الأموال، وممن وفد على يزيد بن عبد الملك معبد ومالك ابن أبي السمح وابن عائشة فأمر لكل واحد منهم بألف دينار، وطلب الوليد المفتي يونس الكاتب، فذهب إليه وغناه، فأعجب بغنائه، فأجازه بثلاثة آلاف دينار[٣٣]، وهكذا كانت أموال المسلمين والفقراء تذهب لغير مستحقيها وبدون عناء ولا وازع من ضمير أو رقيب كل ذلك من أجل نزوات ملوك بني أميَّة الرخيصة ورغباتهم الحقيرة .

هذا الإنفاق غير المتوازن أضرَّ بالمجتمع فترك عامَّة الناس فقراء لا يملكونطعام يومهم ويكدحون من أجل الرغيف في حين يرفل الملوك والولاة وعمالهم وحاشيتهم والمخنثون والمداحون والمغنون والراقصون بأموال الشعب، مما ولَّد طبقيَّة مفرطة بين الأفراد، ولم يعد للاقتصاد الإسلامي أي وجود في واقع الحياة العامة .

انتشار العبيد والإماء في المجتمع

خلق الله الناس أحرارا، أمَّا الرقُّ والعبودية، فحالة طارئة على أصل وجود الإنسان، فيها امتهان لكرامته، وتدنيس لعزته، وكسرٌ لكبريائه، وفيها تحطيم لقدراته العقلية والإبداعية، وتحويله إلى حيوان للعمل والخدمة حاله حال ثور الحراثة وكلب الصيد، وقد شاعت ظاهرة العبودية في العصر الأموي، وكثر العبيد والإماء وزاد عددهم لدرجة كبيرة ومؤثرة على بنية المجتمع؛ وذلك نتيجة الفتوحات الإسلامية ،ووفرة الأموال عند طبقة خاصة من الناس، ما دفعهم لشراء عدد كبير من العبيد والإماء، ومع زيادة أعداد العبيد وانحلال الطبقة الحاكمة ومجونها، وقلَّة مبالاتها بحدود الله وتعاليم السماء زاد الخطر

والتهديد الذي تشكله هذه الطبقة (العبيد والإماء) على المجتمع الإسلامي، فليس ثمة ما يمنع هؤلاء من الانغماس في اللذات والشهوات والتجاوز على الأموال والأعراض وترسيخ الانحلال الأخلاقي في المجتمع، وقد يكون ذلك أقرب لنفوسهم؛ للتشفي بهذا المجتمع الذي حولهم من أحرار إلى عبيد بالقوَّة والسطوة، ويساعدهم على ذلك الجهاز الحاكم بدءا بالخليفة ومرورا بالأمراء والوزراء وانتهاء بموظفي الدولة ومن يتمثل بهم، فقد كانوا جميعا بعيدين عن الإسلام، ولا يأبهون بأحكامه، يتجاهرون بالمنكر والفحشاء ،ولا يراعون آداب الإسلام وأعرافه، بل كانت سياسة بعضهم واضحة في طمس معالم الإسلام والاستخفاف بها حتى صلى خليفة المسلمين سكران وتقيأ بعضهم فيالمحراب من الخمر[٣٤].

شيوع الغناء والرقص والمجون والانحلال الخلقي

لقد كانت نزعة اللؤم والخبث تسيطر على أفعال بني أمَّة وحزبهم؛ ولقد أدرك هؤلاء مدى أهمية يثرب وقدسيتها في نفوس المسلمين فما كان منهم إلا أن يدنسوا هذه المدينة ويشغلوا أهلها وشبابها بالغناء ليأمنوا جانبهم من جهة، وتنهتك حرمة المدينة المقدسة من جهة ثانية، وهكذا استقطب الأمويون المغنيين والمغنيات حتى أضحت يثرب تعج بهم، وأصبحت هناك دور لتعليم الغناء والرقص للفتيان والفتيات ،فانتشر الغناء وانتشر معه المجون والفساد. حتى قال أبو الفرج الأصفهاني: «إن الغناء في المدينة لا ينكره عالمهم، ولا يدفعه عابدهم»[٣٥]، وقال أبو يوسف لبعض أهالي المدينة: «ما أعجب أمركم يا أهل المدينة، في هذه الأغاني، ما منكم شريف ولا دنيء يتحاشى عنها»[٣٦]، لا ريب في أن المدينة المنورة في العصر الأموي كانت مركزا مهما من مراكز الغناء في العالم الإسلامي، ومعهدا خاصا لتعليم الجواري الغناء والرقص، بل أكثر من ذلك فكانت تقام في يثرب والمدينة حفلات الغناء والرقص لأشهر المغنين والمغنيات، وربما كانت مختلطة بين الرجال والنساء، ولم توضع بينهما ستارة[٣٧].

ومن المؤسف حقا أن مدينة النبي صلى الله عليه وآله صارت في العصر الأموي مركزا للحياة العابثة، وكان من المؤمل أن تكون مصدر إشعاع للثقافة الدينية ومركزا مهما للتطور الفكري والحضاري في العالم العربي والإسلامي، إلا أن ملوك بني أمية أماتوا هذه المدينة وانتزعوا منها قدسيتها وأفقدوها زعامتها السياسية والاجتماعية والدينية.وجليٌّ للعيان أن تركيز الأمويين على تدفق الجواري وإشاعة الغناء في هذه المدينةكان يراد منه إلهاء الشباب وإبعادهم عن المطالبة بالخلافة والحكم .

أما مجون الأمويين فأشهر من أن يتحدث عنه باحث فقد عاش ملوك بني أمية كالقياصرة والأكاسرة، حياة كلها لهو وعبث، فأمضوا لياليهم بشرب الخمور وإقامة حفلات الغناء والرقص، وكان أول من آوى المغنين وشجع الغناء من بني أمية يزيد بن معاوية، فقد كان يطلب المغنين والمغنيات من المدينة إلى الشام[٣٨]، ويتجاهر بالفسق والفجور ويشرب الخمر علنا لا يخشى خالقا أو مخلوقا.

ومن مجانهم المعروفين الوليد بن يزيد الذي باع عقله للشيطان وعاش متهتكا فاسقا فارغا من كل القيم الأخلاقية. وحكى المؤرخون قصصا عن مجونه وتهتكه يندى لها الجبين[٣٩]، ومن مجانهم أيضا يزيد بن عبد الملك، الذي بلغ بمجونه الإلحاد والكفر[٤٠]. ولقد تابع الناس ملوكهم في المجون وإظهار الفحشاء، فشاع الفسق والفجور وتفشى في أنحاء العالم الإسلامي.

خلاصة الامر: لقد كانت هذه الأمور أبرز سمات العصر الأموي وسياسات ملوكه وولاته الأمويين وإذا دققنا النظر فيها نجد أنها أكثر بشاعة من قيم العصر الجاهلي التي حاربها الإسلام وسعى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله جاهدا إلى تغييرها في ثلاث وعشرين سنة من الدعوة والجهاد والعمل فأحيى النبيُّ صلى الله عليه وآله العربَ وأنشأ منهم أمَّة أخذت تكبُر وتنمو، ولكن تسلط الأمويين على مقاليد الحكم وسياستهم التي لا تمت لدين الإسلام بصلة بل على العكس هي تقف على النقيض من تعاليمه أماتت الدين وأحيت البدع وأعادت

المجتمع إلى عصر الجاهلية بل كان عصرهم أكثر سوءا ودموية من عصر الجاهلية.

ولقد كان الإمام علي بن الحسين عليه السلام على وعي تامٍّ بأنَّ المجتمع قد عاد وانقلب على عقبيه كما كان يوم بُعثَ جدُّهُ المصطفى صلى الله عليه وآله، ولمَّا كان هو خليفة الله في أرضه ووصي خاتم رسله، فعليه تقع مسؤولية النهوض بالمجتمع، وسياسة الناس ،وصلاح الأمة، وحماية الدين، وحفظ الشريعة. فما كان منه إلا أن يقوم بهذه المهام على أكمل وجه وأتمِّن صفة، فقد وضع لذلك الخطط السديدة، المبنيَّة على علم دقيق بحجم المشكلة وأبعادها، وحدد الطريق الأصلح لعلاج تلك الأمراض الاجتماعية والشخصية، وكان أساس ذلك العمل يرتكز على (فلسفة الإحياء) ولا شكَّ أنها نفس الفلسفة التي ارتكزت عليها دعوة السماء التي جاء بها نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله فدعانا إلى ما يحيينا وأمرنا الله تعالى بالاستجابة لدعوته قائلا عزَّ من قائلٍ ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[41]، لقد اهتم الإمام علي بن الحسين بالفرد فهو اللبنة الأولى لبناء المجتمع، وما لم تكن هذه اللبنة صالحة فلا يمكن للبناء أن يكون صلبا صحيحا وشامخا، لذا كانت فلسفة الإمام لإصلاح المجتمع تقوم في جزء كبير منها على إحياء الفرد وتنشئته تنشئة سليمة تضمن له الحرية والكرامة والعفة والغنى، ويمكن للباحث أن ينظر إلى فلسفة الإمام الإحيائية للأفراد من جهتين الأولى: تتعلق بالحياة المادية للأفراد.

الفصل الثاني

المبحث الاول

الحياة المادية للفرد ومقومات إحيائها

يمكن أن نعرض الحديث حول الإحياء المادي للأفراد في نقطتين:

الإيجاد والتكوين الولي للفرد

يمثل الزواج العلاقة الفطرية والطبيعية التي تربط بين الذكر والأنثى، وهو أنجح الطرق لإنتاج الفرد الصالح في المجتمع، ولقد حثت الشريعة الإسلامية على إيجاد الأفراد في هذه الدنيا من الطرق الشرعية الصحيحة القائمة على الزواج الشرعي بين الذكر والأنثى، وأن لا يكون إيجاد الفرد في المجتمع من سفاح أو طرق غير شرعية أوعلاقات محرمة أو مشبوهة، وقد حثَّ الإسلام على الزواج وإنتاج الأفراد الصالحين للمجتمع، قال تعالى ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾[٤٢]، فمن ضمن نعَم الله التي تفضل بها على العباد أن جعل لهم بنين وحفدة من زوجاتهم؛إذن الأولاد الذين ينشؤون من علاقة الزواج الصحيحة هم من نعَم الله التي أفاضها على عباده، أما غيرهم فقد يكونوا بلاء ووبالا على المجتمع لأنهم سيشعرون بمجموعة من العقد النفسية التي تسيطر على شخصيتهم وتصرفاتهم، وتقودهم للانتقام من المجتمع أو تؤثر سلبا على تصرفاتهم لسد عقدالنقص التي ترافقهم مدة حياتهم؛إذ يشعرون أن وجودهم في هذه الدنيا خطيئةوليس وجودا طبيعيا.

وقد ندب رسول الله صلى الله عليه وآله الزواج وحبب إنتاج الأولاد فقال صلى الله عليه وآله: ((تزوجوا فإني مكاثر بكم الامم غدا في القيامة))[٤٣]، وكان الإمام زين العابدين عليه السلام يسير على نهج جده المصطفى في الدعوة إلى إشاعة الزواج وتكثير الأولاد؛ إذ يقول:

((من سعادة الرَّجلِ أن يَكون له وِلْدٌ يَستعينُ بهم))[٤٤]؛ وقال عليه السلام: ((من سعادة المرء أن

يكون متجره في بلده ويكون خُلطاؤه صالحين، ويكون له ولد يستعين بهم ،ومن شقاء المرء أن تكون عنده امرأة معجب بها، وهي تخونه))[٤٥]، فإنتاج الذرية الصالحة سبب من أسباب سعادة المرء الفردية في هذه الدنيا؛ إذ تضمن له العون على مصاعب الحياة، فالمجتمع يعين بعضه بعضا، وفي كلامه عليه السلام إشارة واضحة إلى ضرورة اختيار الزوجة الصالحة لتكون أُما للأولاد، وسببا من أسباب الاستقرار ،وفي هذه الدعوة إلى حسن الاختيار تذكير بوصية النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ((تزوجوا في الحجر الصالح؛ فإن العرق دساس))[٤٦]. وكان الإمام عليه السلام نفسه يستعين بالدعاء والتوسل إلى الله تعالى ليرزقه الذرية الصالحة، ويحث أصحابه على ذلك؛ إذ يقول عليه السلام لبعض أصحابه: ((قل في طلب الولد: ربِّ لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين ،واجعل لي من لدنك وليا يرثني في حياتي ويستغفر لي بعد موتي، واجعله ربي خلفا سويا، ولا تجعل للشيطان فيه نصيبا، اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك إنك أنت الغفور الرحيم، سبعين مرة فإنه من أكثر من هذا القول رزقه ال ما تمنى من مال وولد، ومن خير الدنيا والآخرة، فإنه يقول ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾[٤٧]))[٤٨]، فيأمر الإمام عليه السلام أصحابه في طلب الولد الصالح، وأن يستعينوا على ذلك بالدعاء فضلا عن تخيرهم الزوجة الصالحة لتكوين الأسرة، بلأكثر من ذلك يذكر الإمام عليه السلام شيعته، بأن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أمر أصحابه بالزواجمن أمهات الأولاد، فيقول عليه السلام: ((قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: اطلبوا الولاد من أمهات الولاد، فان في أرحامهن البركة))[٤٩]، ولنا عودة للحديث عن هذه الدعوة الصريحة من الإمام بإنتاج الأولاد من الإماء بعد قليل، ولكن هنا يتبيَّن لنا أيضا أن الإمام يحفز أصحابه على تكثير الذرية بالطرق الشرعية الصحيحة.

إذن الطريق الصحيحة لإنتاج الأفراد في المجتمع الصالح تكمن في الزواج الشرعي وهو العلاقة الطبيعية المثلى لتكوين الفرد، ومن خلاله يشعر الإنسان بكرامته واعتزازه بوجوده، ويكون خاليا ابتداء من عقدة الوجود، أو أيَّة عقد نفسية أخرى تتعلق بأصله

وتكوينه وإيجاده، وهذه النقطة لها من الأهميَّة الشيء الكثير في توجيه تصرفات الفرد والسيطرة على أفعاله وأفكاره، ولقد أثبتت التجارب أنَّ كثيرا من العناصر الدموية الإرهابية التي خطت سيرتها في تاريخ البشريَّة بدماء الأبرياء لم يكن وجودهم في هذه الدنيا بالطرق الصحيحة، فقد أُنتجوا من غير طريق الزواج الطبيعي.

الإيجاد الثانوي للفرد

ذكرنا آنفا أن من سمات العصر الأموي الذي عاش فيه إمامنا علي بن الحسين كثرة العبيد والإماء، وهذه الكثرة كانت في ظروف مجتمعية ليست سليمة وتعاني من كثير من الأمراض؛ لذا كانت هذه الظاهرة تشكل خطرا مضافا للمجتمع من جهتين:

الُولى منهما يكمن في أنَّ انتشار العبيد والإماء كان يتم دون تحصينهم أخلاقيا أو تربيتهم تربية إسلامية، فقد يُؤتى بهم من بيئات مختلفة بعيدة كل البعد عن تعاليمالإسلام، ويُزج بهم في المجتمع، وهو يعيش هذا الانحلال لطبقة القوم العليا، فيظن هؤلاء أن الإسلام يُبيح كل تلك الموبقات التي يقوم بها الخلفاء وحاشيتهم، ما يدفعهم إلى التمادي في إظهار كل ما يروق لمواليهم، وهنا يكمن خطر ظاهرة انتشار العبيد والإماء[٥٠]. هذا الخطر الأول.

أما الجهة الثانية: فإن سياسة بني أمية كانت تقوم على عدم الاعتراف بإنسانية العبيد والإماء ولا يرون أنهم بشر مثلهم، لهم حقوقهم في العيش الكريم، ولا يجوز امتهان كرامتهم، بل على العكس، فبنو أمية يرون العبيد أنصاف بشر؛ فقد صرَّح معاوية مثل ما مرَّ بنا آنفا بأنه يريد قتل نصف العبيد الموجودين في المجتمع لا لشيء سوى أن أعدادهم صارت كثيرة، وكثرتهم قد تشكل خطرا على حكمه، ولم يكن هذا الشعور مستترا في نفوس الطبقة الحاكمة، بل كانوا يصرحون به، ويظهر على صفحات وجوههم، ويَبِينُ في فلتات أفعالهم، وكان العبيد يعلمون هذا الأمر ويتلمسونه في تعامل أسيادهم من الطبقة الحاكمة وأتباعهم، مما ولَّد شعورا بالاستياء منهم، وقد نما هذا الشعور عندهم، وجعلهم ينقمون على المجتمع بأسره، وهنا تكمن الخطورة الثانية لظاهرة انتشار العبيد في زمن بني أميَّة،

فقد يسعى بعضهم إلى الانتقام من كل شيء في هذه المنظومة المجتمعية المتناقضة، فيحطم أعرافها ويكسر روابطها، بل تعدت نقمتهم ذلك، حتى وصلت بعد شعورهم بالظلم الفاحش ،وفساد الطبقة الحاكمة إلى أن خرج بعضهم في ثورات على السلطة[٥١]، وكانوا سببا من أسباب تقويض الحكم الأموي.

كان على الإمام زين العابدين عليه السلام أن يشرع في علاج فعَّال لهذه الظاهرة فيُحيِيهؤلاء الناس بعدما فقدوا حريتهم، ولم يعودوا يملكون رقابهم، عليه أن يعالجالموضوع بحكمة ومسؤولية؛ إذ هو إمام الأمة، وخليفة الله في أرضه، وعلى عاتقه تقع مسؤولية إحياء العباد والبلاد؛ فكانت ظاهرة شرائه عليه السلام للعبيد وعتقهم تمثل أنجح السبل لحل هذه المشكلة، فكان الإمام عليه السلام يشتري العبيد والإماء، ولكن لا يبقي أحدهم عنده أكثر من سنة واحدة، وكان يلتمس لهم الحجج والأعذار لتكون سببا لعتقهم وتحريرهم من الرق والعبوديَّة[٥٢]، وبذلك إحياء لهؤلاء الأفراد بعدما كانوا أمواتا.

ولسائل أن يسأل: لماذا لا يعتق الإمام عليه السلام العبيد فور شرائهم؟ أليس في ذلك تعجيل بعمل الخير؟ أليس في عتقهم فورا تسريع بحل المشكلة الاجتماعية؟ هل كانت بالإمام عليه السلام حاجة إلى خدمة هؤلاء العبيد؟

هذه الأسئلة وأمثالها قد ترد على ذهن كثيرين، ولكن التأمل في سيرة الإمام عليه السلام، وإنعام النظر في تعامله مع عياله ومواليه يعطي إجابة شافية عن تلك الأسئلة كلها.

ويمكننا أن نقول: كان الإمام علي بن الحسين عليه السلام على وعي تام بأحوال المجتمع، وما يعانيه من أزمات، وظاهرة تفشي العبيد وانتشارهم كانت أزمة اجتماعية تحتاج إلى حلٍّ صحيح، ويعلم الإمام عليه السلام جيدا أن هؤلاء العبيد بأمس الحاجة إلى الرعاية والتربية فهم ينتمون إلى بيئات مختلفة عن بيئة الإسلام الحقيقي ،وإذا ما تمَّ عتقهم فور شرائهم فسيتركهم الإمام عليه السلام يواجهون المجتمع بواقعه المتناقض المريض، وهذا قد يؤدي إلى ضياعهم؛ بسبب عدم فهمهم لتعاليم الدين الصحيحة، ومن المنطقي جدا أن كثيرا من

هؤلاء الأفراد سيكون عالة على المجتمع؛ إذا لاعمل لديم ولا عشيرة تؤويم، وسياسة الدولة تعمل على تقسيم الناسبحسب أصولهم وأعراقهم، وتميز بينهم إلى أشراف، وأقل شرفا، وحتى إذا أعتقالعبد سيسمى (مولى فلان) يشعرونه بأنه عبد حتى وإن ملك رقبته.

مع هذه الأوضاع الاجتماعية الحرجة كان على الإمام عليه السلام أن يُعيد إحياء هؤلاء الأفراد ويعيد إليهم كرامتهم التي جرحت، ويداوي نفوسهم التي تصدعت ،ويعالج روحهم التي خدشت، ليضمن أنه حينما يسرحهم في المجتمع من جديد سيكون كل فرد منهم عنصرا بناءً ومبدعاً، ويتجاوز هؤلاء الأفراد مدَّة عبوديتهم ،وما جرى عليهم فيها من المهانة والذل والانتقاص.

يروي لنا الإمام جعفر الصادق عليه السلام حال جده زين العابدين عليه السلام، قائلا:

((كان علي بن الحسين عليه السلام إذا دخل شهر رمضان لا يضرب عبدا له ولا أمة، وإنه كان يكتب جناياتهم في كل وقت، ويعفو عنهم في آخر ليلة من الشهر، ثم يقول: اذهبوا فقد عفوت عنكم وأعتقت رقابكم، قال: وما من سنة إلا وكان يعتق فيها في آخر ليلة من شهر رمضان ما بين العشرين رأسا إلى أقل أو أكثر، وكان يقول: إن ل عز وجل في كل ليلة من شهر رمضان عند الإفطار سبعين ألف ألف عتيق من النار ،كل قد استوجب النار، فإذا كان آخر ليلة من شهر رمضان أعتق فيها مثل ما أعتق في جميعه، واني لحب أن يراني ال وقد أعتقت رقابا في ملكي في دار الدنيا رجاء أن يعتق رقبتي من النار، وما استخدم خادما فوق حول، كان إذا ملك عبدا في أول السنة، وفي وسط السنة إذا كان ليلة الفطر أعتق، واستبدل سواهم في الحول الثاني ثم أعتق، كذلك كان يفعل حتى لحق بال، ولقد كان يشتري السودانوما به إليهم من حاجة، يأتي بهم عرفات فيسد بهم تلك الفرج والخلال فإذا أفاض أمر بعتق رقابهم ،وجوائز لهم من المال))[٥٣]، هكذا يذكر لنا الإمام الصاد عليه السلام كيف أن جدَّه زين العابدين عليه السلام كان يعتق العبيد ويحررهم على شكل وجبات، وفي مناسبات مختلفة في نهاية شهر رمضان، وفي عرفات أي قبل كل عيد من أعياد المسلمين له وجبة

يعتقهم بعد أن يطمئن أنهم قد نالوا من عطفه ورعايته ورحمته ما يمكنهم من العيش أفرادا صالحين نافعين في المجتمع.

كان الإمام علي بن الحسين عليه السلام يعامل العبيد معاملة إنسانية مثالية، فلا يشعرون في كنفه إلاَّ بأنهم بعض عياله، ما يغرز في نفوسهم الأخلاق الكريمة ،ويحبّب إليهم الإسلام، ويعرفون من خلال تلك المعاملة حقيقة الأئمة المعصومين ،وأنهم خلفاء الله في أرضه، وأنَّ هدفهم إصلاح المجتمع ورعاية الناس، ولم يكن الإمام زين العابدين عليه السلام ينتظر شهر رمضان أو يوم عرفات ليعتق العبيد، بل كان يتحين الفرص لتحريرهم وعتق بعضهم، وخاصة إذا اطمأن أن هذا العبد مهيأ لإعادة الاندماج في المجتمع، وأنَّه سيكون عنصرا فاعلا فيه، ومهما زاد أذى العبد زاد عفو الإمام عليه السلام اتجاهه ليجسد لنا الإمام رحمة السماء وعطفها وسماحتها، فيُذكر «أن جارية له كانت قائمة عليه توضئه، فسقط الإبريق من يده اعلى وجهه، فشجه ،فنظر إليها، فقالت: يامولاي إن الله عز وجل يقول ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾، قال عليه السلام:

كظمت غيظي، قالت: ويقول ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾، قال عليه السلام: قد عفوت عنك،قالت: ويقول ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال عليه السلام: فأنت حرة لوجه ال»[٥٤].

يتضح من الخبر أن الجارية كانت حافظة لآيات القرآن الكريم سريعة التذكر لها، وهذا دليل على قربها من القرآن وآياته، وكيف لا؟ والإمام عليه السلام كان حليف القرآن يرتله ليلا نهارا، فكل من يحيط به من عياله وأهل بيته وغلمانه كانوا يحفظون عنه القرآن ويتعلمون قراءته وحفظه، ولقد نفعهم هذا الحفظ في الدنيا بعتق رقاب بعضهم، فتذكر لنا كتب الحديث خبرا آخر مفاده: «أذنب غلام لعلي بن الحسين عليه السلام ذنبا استحق به العقوبة فأخذ له السوط وقال ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لايَرْجُون أَيَّامَ اللهِ﴾[٥٥] فقال الغلام: وما أنا كذا كإني لأرجو رحمة الله وأخاف عذابه، فألقى السوط، وقال: أنت عتيق»[٥٦]، ونلاحظ هنا كيف تمكن العبد من أن يستعطف الإمام عليه السلام ويكسب رضاه بكلمة جميلة لطيفة ببركة فهمه

لآيات القرآن التي يسمعها من سيده زين العابدين عليه السلام، بل أكثر من ذلك تذكر الأخبار «أن قوما كانوا عند علي بن الحسين عليه السلام فاستعجل خادما بشواء في التنور، فأقبل به مسرعا ،فسقط السفود من يده على وَلَدِ علي بن الحسين عليه السلام، فأصاب رأسه فقتله، فوثب علي بن الحسين عليه السلام، فلما رأى ابنه ميتا، قال للغلام: أنت حر لوجه ال تعالى، أما إنك لم تتعمده، ثم أخذ في جهاز ابنه»[٥٧]، ويروي لنا الإمام محمد الباقر عليه السلام قائلا:

((إن أبي ضرب غلاما له واحدة بسوط، وكان بعثه في حاجة فأبطأ عليه، فبكى الغلام وقال: ال تبعثني في حاجتك ثم تضربني قال: فبكى أبي وقال: يا بني، اذهب إلى قبر رسول ال صلى الله عليه وآله فصل ركعتين وقل: اللهم اغفر لعلي بن الحسين خطيئته، ثم قال للغلام: اذهب فأنت حر))[٥٨].

ولم تقتصر مصادر الشيعة على ذكر أخبار عتق الإمام علي الحسين عليه السلام للعبيد ،بل تواتر في كتب العامة مثل هذه الأخبار، فعن سعيد بن مرجانة، قال وهو بحضرة الإمام علي بن الحسين عليه السلام: «سمعت أبا هريرة يقول: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول:

((من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله عز وجل بكل إرب منها إربا منه من النار، حتى أنه يعتق باليد اليد، وبالرجل الرجل، وبالفرج الفرج)) فقال علي بن الحسين عليه السلام: أنت سمعت هذا من أبي هريرة! قال سعيد: نعم. فقال الإمام عليه السلام: ادع لي مطرفا – غلام له أفره غلمانه– فلما قام بين يديه، قال: اذهب، فأنت حر لوجه ال»[٥٩]، وكان (مطرفا) من أفضل غلمان الإمام عليه السلام، فهو ذو أدب وذكاء وحنكة وقوة، وقيل: إن عبد الله بن جعفر الطيَّار كان قد عرض على الإمام زين العابدين عليه السلام أن يشتري منه هذا الغلام بألف دينار وقيل بعشرة آلاف درهم[٦٠] فلم يبعه الإمام عليه السلام وإن كان المبلغ الذي عرض عليه عاليا، ولعلَّ الإمام علي بن الحسين عليه السلام كان يتحين الفرصة المناسبة لعتقه فرقبة هذا الغلام عنده عليه السلام أغلى من كل ثمن يقدم بدلا منها، فقد كان الإمام عليه السلام يربي هذا الغلام وأمثاله بيده ويعيد دمجه بالمجتمع، ليكونوا بؤرة صالحة تنشر الخير والفضيلة والصلاح فيمن حولهم.

وهكذا تستمر الروايات التي تتحدث عن عتق الإمام زين العابدين عليه السلام للعبيد والإماء حتى ذكرت المصادر أنه أعتق آلافا منهم مدة حياته الشريفة[٦١]، وكان هؤلاء العبيد يتعلمون على يد الإمام عليه السلام مبادئ الدين وحفظ القرآن الكريم ،وتفسير بعض آياته ويتعلمون من سلوك الإمام عليه السلام العبادة والإخلاص والإيمان والتقوى والصدق والجود والسخاء والفضيلة كلها، ثم إن قسما ليس بالقليل من عتقاء الإمام عليه السلام أخذوا يدرسون على يديه عليه السلام العلوم الدينية القرآن الكريم والحديث الشريف، فنبغ نفر منهم وأصبحوا فيما بعد علماء مبرزين لهم شأنهم في المجتمع وسموا عتقاء الإمام زين العابدين عليه السلام[٦٢].

وتذكر الروايات أن الإمام عليه السلام لم يكن يعتق أحدا حتى يبه من الأموال والجوائز والعطايا ما يضمن معه أنه سينطلق في المجتمع انطلاقة صحيحة، ولا يتركه يطلب ما في أيدي الناس أو يصبح عالة على المجتمع بل يضمن الإمام عليه السلام له حياة كريمة من خلال بعض الأموال التي يبها له عند عتقه أو بعد عتقه[٦٣].

لقد شكلت ظاهرة عتق العبيد عند الإمام زين العابدين عليه السلام سمة بارزة في حياته الكريمة حتى كتب عنها جلُّ من تصدى لذكر سيرة الإمام عليه السلام العطرة وأرخ لحياته المجيدة، وما كانت هذه الظاهرة عند الإمام عليه السلام إلاَّ علاجا واضحا وناجعا لأزمة كانت تهدد المجتمع الإسلامي، وهي ظاهر انتشار العبيد والإماء ضمن بيئة تعاني من كثير من الأمراض الاجتماعية، فكانت سياسة الإمام عليه السلام تقوم على إحياء نفوس هؤلاء العبيد من خلال تربيتهم تربية صحيحة وإعادتهم إلى الحياة الطبيعية بعد أن يحررهم ويعتق رقابهم من العبوديَّة، ولاشكَّ أن هذا العمل من الإمام عليه السلام كان إحياء ثانيا لهؤلاء الأفراد، وهو أهم من الإحياء الأولي إي إيجاد الفرد بعد أن لم يكن موجودا، وذاك الإحياء الأولي يكون سببه المباشر الوالدان، ولكن ما نفع أن يكون الفرد موجودا وهو لا يملك رقبته فهو عبدٌ لإنسان آخر. إنَّ ظاهرة العبودية هي إماتة للأفراد، فكانت فلسفة الإمام عليه السلام تقوم على التصدي لهذه الظاهرة من خلال إحياء هؤلاء الأفراد ثانية، وإعادة دمجهم بالمجتمع،

وأحسب أن الإمام علي بن الحسين عليه السلام قد حقق نجاحات كبيرة في هذا المجال، وشكَّل الرقيق الذين أعتقهم الإمام عليه السلام جيلا من التلامذة الذين تربّوا في بيته الطاهر وتلقوا الفضائل على يديه الكريمتين بأفضل شكل، وعاشوا معه حياة مفعمة بالحقّ والمعرفة ،والصدق والإخلاص، وقد استقطب الإمام عليه السلام ولاء هؤلاء الموالي وأصبحوا فيما بعد مدافعين أشداء عن الإمام عليه السلام وأهل بيته في المدينة وما حولها(٦٤).

لقد كان الإمام عليه السلام قدوة للأمة الإسلامية ومثالا للمسلمين جميعا وكان عمله هذا في التصدي لظاهرة العبودية وإحياء الناس ثانية، محط نظر وعناية من كثير من شيعته، وممن يقتدون به، ويقينا أن كثيرا من الميسورين كان يعتق بعض الغلمان تأسيا بالإمام زين العابدين عليه السلام.

المبحث الثاني

الحياة المعنوية للفرد ومقومات إحيائها

يتقاسم حياة الفرد جانبان جانب مادي وجانب روحي معنوي وإذا كانت حياة الفرد الماديَّة تتقوم بالوجود المادي العيني فإن حياة الروح تقوم بأمور أخرى سنذكر منها:

الإيمان بالله تعالى

كانت دعوة الأنبياء والرسل واحدة، وإن تعددت أوقاتها واختلفت بيئاتها ،فالمبدأ الذي دعا إليه هؤلاء المكرمون دعوة الإنسان لعبادة الله الواحد الأحد، ونبذ الشرك والعبودية، وهذه هي الكلمة التي اشتركت بها كل الأديان ﴿قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[٦٥]، وأتباعُ أولئك الرسل إن آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا بشرعتهم ومنهاجهم الصحيح، فلهم الفوز عند ربهم، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالنَّصارى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٦٦]، فمبادئ الأديان الرئيسة واحدة (الإيمان بالله عزوجل، وتوحيده ،ونبذ الشرك) وهذه الأسس هي قوام دعوة الدين عند الله تعالى، وقد وُصِفَ الكافرون والمشركون في القرآن غير مرَّة بأنهم (أموات)، قال تعالى ﴿أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٦٧]، قال الطوسي في تفسيرها: «والمعنى مَنْ كان ميتا بالكفر فصار حيَّاً بالإسلام بعد الكفر، كالمُصرِّن على كُفرِه؟!»[٦٨]. ومثلها قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[٦٩]، فقد وصف الله الكفار والمشركين بأنهم (أموات غير أحياء)، ويقينا أن الموت هنا هو الموت المجازي، فليس المقصود بكلمة

(الموت) معناها الأولي الذي دلالته فقدان الروح، بل معناه هنا فقدان مقومات الحياة

الحقيقية للإنسان، ومعنى (فأحييناه) في الآية المباركة المتقدمة ليس بمعنى وهبناه الروح التي تحل في الجسد، بل معناها هو نفسه المقصود في قوله تعالى ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[٧٠]، فالحياة التي تدعو لها الآيات الكريمات هي الحياة المبنية على العلم والدين الحق الذي يخرج الفرد من ظلم العبودية والتسلط والانغلاق إلى أجواء التحرر والانقياد للحقيقة المطلقة، تلك هي عبادة الله الواحد الأحد القائمة على اليقين والتفكر والعلم والعمل،الموصلة إلى إدراك معنى الخلافة الإلهية[٧١] وأن الإنسان في هذه المرحلة من وجوده مكلف بتحقيق أهداف معينة ليرتقي ويقترب من مصداق خليفة الله في الأرض.

أضرت سياسة الأمويين بالناس فقد كان المجتمع الإسلامي أيامهم يعاني من تدهور خطير وانتكاسة كبيرة تهدد وجوده الإيماني فقد تمكن خلفاء بين أمية من السيطرة على مقاليد الحكم بدهاء ومكر وتسلط، وعاثوا في الأرض فسادا، وعملوا على تحريف دين الله بما يلائم أهواءهم وتحقيق مصالحهم الشخصية، وجعلوا من الإسلام واجهة لحكمهم يتسلطون من خلاله على رقاب الناس وأموالهم، أما حقيقة المعتقد فلا علاقة لهم به، بل أكثر من ذلك، وجد المفسدون والمبطلون والمشركون والملحدون ساحة رحبة، وفسحة واسعة أيام بني أمية ليعشعشوا بين ضعاف المسلمين، وينشروا سمومهم وأفكارهم الإلحادية في المجتمع .

في ظل هذه الظروف كان لزاما على الإمام علي بن الحسين عليه السلام أن يعمل على زرع الإيمان بالله بين الناس وإنعاشه وتقويته في قلوبهم كان على الإمام عليه السلام أن يغرس الإيمان في نفوس الأفراد الذين تراودهم الشكوك بوجود الخالق المطلق رب الأرباب الواحد القهار، كما فعل جده المصطفى بداية بعثته، ولعل المهمة أيام الإمام عليه السلام كانت أكثر تعقيدا؛ إذ في زمن النبي الأكرم كان مجتمع الجزيرة العربية وما حولها مجتمعا بدويا تتحكم فيه الأعراف الجاهلية القبلية، ولكنه مجتمع يعتمد على الفطرة إلى حدما، لم تلوثه المعتقدات الإلحادية الفاسدة

كثيرا، أما في زمن بني أمية فقد انفتح العالم الإسلامي على بعض الثقافات والبيئات التي كانت تنتشر فيها أفكار الإلحاد والشرك، وتعترضها الشبه والأوهام، وغيرها من الأمور التي تعيق الإيمان في نفوس بعض الأفراد، أو تزحزح الإيمان وتزيله من ضعاف النفوس، من هنا كان مسؤولية الإمام علي بن الحسين كبيرة في التصدي للانحراف العقدي الذي يتعرض له المجتمع، ومع انتشار اللهو والمجون والتمايز الطبقي، وكثير من الأمراض الاجتماعية تزداد خطورة الأفكار الإلحادية في قتل الإيمان وقلعه من نفوس بعض الأفراد .

لقد وقف الإمام عليه السلام بالمرصاد لهذا الخطرومنع موت كثير من أبناء المجتمع ،من خلالإحياء الإيمان في قلوبهم، وقد سلك لتحقيق ذلك طريقا قريبة على النفوس ،ففي الوقت الذي كانت في النفوس القلقة والضعيفة تهفو إلى الغناء والطرب ،سلك الإمام زين العابدين عليه السلام طريق مناجاة الخالق بتلك المجموعة الكبيرة من الأدعية والمناجاة الشفافة التي تمثل رسائل بين العبد وخالقه، يستعطف بها الباري ويدعو بها، ليلا ونهارا، قائما وقاعدا، سرا وجهارا، فكان الإمام يناجي ربه بألطف العبارات، وأرق الألحان، وكانت مناجاته تلك غناء الروحِ تجاه السماء، وكانت تلك العبارات بلسما يغرس الإيمان، وينشره ويعززه في نفوس كل من يسمع تلك الأدعية أو يتعلمها من الإمام عليه السلام، تطفح من جنباتها عبارات الانقياد والخضوع والتسليم والشكر والثناء والحمد والتسبيح لله تعالى، كل فقرة منها تحمل دفعات ضخمة من مشاعر الإيمان بالله عزوجل،كانت تلك العبارات تنتشر بين أفراد المجتمع انتشارا سريعا نافعا وتنفذ إلى سرائرهم؛ وذلك لأنهم يشاهدون إمامهم يلهج في الأوقات كلها، يرتلها وهو يذوب في العبادة والخضوع للباري تعالى شانه.

لم يكن الإمام السجاد عليه السلام متصنعا لأجواء العبادة والتعبد، لم يكن الإمام السجاد عليه السلام متصوفا، أو مريدا في تكية للتصوف، كان الإمام السجاد عليه السلام عابدا حقيقيا لله تعالى عرف معنى العبادة وانغمس فيها فكل عضو من جسده يذوب في العبادة، وكل همسة من همساته عبادةٌ، كل حركة منه عبادةٌ وكل سكنة منه عبادةٌ، كل نفس يصعد وينزل في صدر الإمام

عليه السلام كان عبادة لله تعالى، لم تمر عليه لحظة دون عبادة، ولنستذكر بعض عباراته من بعض أدعيته ومناجاته:

كان الإمام عليه السلام يفتتح أدعيته بحمد الله عزوجل والثناء عليه وتذكر نعمه ،فيقول: ((الْحَمْد لله الاَوَّل بلَا أَوَّل كَانَ قَبْلَه، والآخر بلَا آخر يَكُونُ بَعْدَه، الَّذي قَصُرَتْ عَنْ رُؤْيَته أَبْصَارُ النَّاظرينَ، وعَجَزَتْ عَنْ نَعْته أَوْهَامُ الْوَاصفينَ. ابْتَدَعَ بقُدْرَته الْخَلْقَ ابْتدَاعاً، واخْتَرَعَهُمْ عَلَ مَشيَّته اخْترَاعاً. ثُم سَّلَكَ بهمْ طَريقَ إرَادَته ،وبَعَثَهُم في سَبيل محَبَّته ،لَا يَمْلكُونَ تَأْخيراً عَمَّا قَدَّمَهُمْ إلَيْه، ولَا يَسْتَطيعُونَ تَقَدُّماً إلى مَا أَخَّرَهُمْ عَنْه. وجَعَلَ لكُلِّ رُوح مِنْهُمْ قُوتاً مَعْلُوماً مَقْسُوماً مِنْ رزْقه ،لَا يَنْقُصُ مَنْ زَادَه نَاقصٌ، ولَا يَزيدُ مَنْ نَقَصَ مِنْهُمْ زَائدٌ. ثُمَّ ضَرَبَ لَه في الْحَيَاة أَجَلًا مَوْقُوتاً، ونَصَبَ لَه أَمَداً محْدُوداً، يَتَخَطَّى إلَيْه بأَيَّام عُمُره ويَرْهَقُه بأَعْوَام دَهْره حَتَّى إذَا بَلَغَ أَقْصَى أَثَره واسْتَوْعَبَ حسَابَ عُمُره، قَبَضَه إلى مَانَدَبَه إلَيْه مِنْ مَوْفُور ثَوَابه، أَوْمحْذُور عقَابه ﴿ليَجْزيَ الَّذينَ أَساؤُا بما عَملُوا ويَجْزيَ الَّذينَ أَحْسَنُوا بالْحُسْنَى﴾ عَدْلًا منْه، تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُه، وتَظاهَرَتْ آلَاؤُه ﴿لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وهُمْ يُسْئَلُونَ﴾))[٧٢]، يلاحظ أن الإمام عليه السلام يفتتح خطابه مع الباري بحمده تعالى ذكره، ثم تذكير النفس والآخرين بأن الله تعالى هو أصل الوجود، وهو المنعم علينا بالإيجاد، وهو الأوَّلُ قبل كل أوَّلٍ، وسيبقى الله تعالى بعد فناء كل شيء، فهو الأول والآخر، وفي هذا تذكير بالآية الكريمة ﴿هُوَ الاَوَّلُ وَالْآخرُ وَالظَّاهر وَالْباطن ﴾[٧٣]، ثم يذكر ببعض صفات الله تعالى، فليس الله بجسم يُرى ولا محدودٍ يُحسُّ بالحواس، فذاته المقدسة فوق أوهام العقول، وما يتصوره المبطلون، ثم يذكر بعظيم خلق الله الذي خلق ما شاءت إرادته وحكمته من الخلق، وكيف قدَّرَ لهم آجالا ينتهون إليها، فهو المسيطر على خلقه، وهذا الخلق كله بعظمته مستجيب لإرادة خالقه، لايملك دون إرادته شيئا. تمثل هذه المقدمة مفتتح الدعاء عند الإمام زين العابدين عليه السلام وهي دالَّة على اعتراف الداعي وخضوعه لمولاه، وتعظيمه لقدرته غير المتناهية، وعجز هذا الداعي الضعيف عن فعل أي شيء دون توفيق الله وإرادته؛ لذا يلجأ العبد الفقير إلى مولاه

القادر معترفا له بالقوة والغلبة والقهر والجبروت، ليطلب منه العون والتوفيق لعبادته والتضرع بين يديه ولا شكَّ أنَّ هذا المقطع يطفح بالإيمان والانقياد والتذلل والخضوع والمسكنة للخالق القادر والمسيطر الجبار عزَّ ذكره.

ثم يتابع عليه السلام خطابه لربِّه قائلا: ((والْحَمْدُ لله عَلَ مَا عَرَّفَنَا مِنْ نَفْسِه، وأَلْهَمَنَا مِنْ شُكْرِه، وفَتَحَ لَنَا مِنْ أَبْوَابِ الْعِلْمِ بِرُبُوبِيَتِه، ودَلَّنَا عَلَيْه مِنَ الإِخْلَاصِ لَه فِي تَوْحِيدِه ،وجَنَّبَنَا مِنَ الإِلْحَادِ والشَّكِّ فِي أَمْرِه. حَمداً نُعَمَّرُ بِه فِي مَنْ حَمِدَه مِنْ خَلْقِه، ونَسْبِقُ بِه مَنْ سَبَقَ إلى رِضَاه وعَفْوِه. حَمداً يُضِيءُ لَنَا بِه ظُلُمَاتِ الْبَرْزَخِ، ويُسَهِّلُ عَلَيْنَا بِه سَبِيلَ الْمَبْعَثِ، ويُشَرِّفُ بِه مَنَازِلَنَا عِنْدَمَوَاقِفِ الْشَهَادِ، يَوْمَ ﴿تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ﴾ ﴿وهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿يَوْمَ لا يُغْني مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً ولاهُمْ يُنْصَرُونَ﴾، حَمداً يَرْتَفِعُ مِنَّا إلى أَعْلَ عِلِّيِّينَ فِي كِتَابٍ مَرْقُومٍ ﴿يَشْهَدُه الْمُقَرَّبُونَ﴾ حَمداً تَقَرُّه بِه عُيُونُنَا إذَا بَرِقَتِ الْبَصَارُ، وتَبْيَضُّه بِه وُجُوهُنَا إذَا اسْوَدَّتِ الْبَشَارُ. حَمداً نُعْتَقُ بِه مِنْ أَلِيمِ نَارِ اللَّه إلى كَرِيمِ جِوَارِ اللَّه. حَمداً نُزَاحِمُ بِه مَلَائِكَتَه الْمُقَرَّبِينَ، ونُضَامُّه بِه أَنْبِيَاءَه الْمُرْسَلِينَ فِي دَارِ الْمُقَامَةِ الَّتِي لَا تَزُولُ، ومَحَلِّ كَرَامَتِه الَّتِي لَا تَحُولُ....))[٧٤].

يتابع الإمام عليه السلام حمد الله تعالى محاولا الوصول إلى حمد الله حق حمده، معترفا بالوقت نفسه أنَّ حق الله تعالى في الحمد لايقدر على إحصائه غيره عزَّ شأنه، مذكرا العبادَ أن الله تعالى من لطفه ورأفته بالعباد عرَّفهم بعض خصائص ذاته المقدسة وصفاتها، ليعرفوا عظمتها، ويعلموا عظيم حقها عليهم، وأنَّ الله تعالى هو الذي ألهَمَ عباده شكره؛ ليكون هذا الشكر سببا لدوام نعمه عليهم، وزيادة عطائه لهم، ثم إنَّ هذا الخالق الرحيم هو الذي هدى العباد للعلم، وطلب إليهم الولوج في طرقه ،والتفكر في أسباب خلقه، واستكشاف خصائص هذا الخلق ومميزاته، وكل ذلك ليتعرف الخلق عظيم قدرة الله تعالى، وقوَّته وتدبيره؛ فيعبدوه عبادة العبد المنقطع إلى ربه، العارف بفضله وعظمته. وهكذا يستمر الإمام عليه السلام في حمد الله تعالى في فقرات متتابعة يقلب فيها أوجه استحقاق الحمد لله على عباده وتطول هذه الفقرات وتتنوع، لينتهي فيها إلى حمد الله على نعمةٍ عظيمة قائلا: ((والْحَمْدُ لله الَّذِي

مَنَّ عَلَيْنَا بِمُحَمَّدٍ نَبِيه صلى الله عليه وآله دُونَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ والْقُرُونِ السَّالِفَةِ، بِقُدْرَتِه الَّتِي لَا تَعْجِزُ عَنْ شَيءٍ وإِنْ عَظُمَ، ولَا يَفُوتُهَا شَيءٌ وإِنْ لَطُفَ. فَخَتَمَ بِنَا عَلَى جَمِيعِ مَنْ ذَرَأَ، وجَعَلَنَا شُهَدَاءَ عَلَى مَنْ جَحَدَ، وكَثَّرَنَا بِمَنِّه عَلَى مَنْ قَلَّ. اللَّهُمَّ فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ أَمِينِكَ عَلَى وَحْيِكَ، ونَجِيبِكَ مِنْ خَلْقِكَ، وصَفِيِّكَ مِنْ عِبَادِكَ، إِمَامِ الرَّحْمَةِ، وقَائِدِ الْخَيْرِ، ومِفْتَاحِ الْبَرَكَةِ. كَمَا نَصَبَ لِأَمْرِكَ نَفْسَه، وعَرَّضَ فِي كَلِمِ مَكْرُوه بَدَنَه، وكَاشَفَ فِي الدُّعَاءِ إِلَيْكَ حَامَّتَه، وحَارَبَ فِي رِضَاكَ أُسْرَتَه وقَطَعَ فِي إِحْيَاءِ دِينِكَ رَحِمَه))...[٧٥]، هنا يذكر الإمام عليه السلام ويذكِّر العباد أنَّ نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله من مصادر الرحمة الإلهية وقد حبانا الله تعالى به دون الآخرين، فكوننا من أتباع خاتم الأنبياء والحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله نعمة من نعم الله علينا يستوجب بها الله تعالى الشكر والثناء، وهذه النعمة من أعظم النعم، ثم يأخذ الإمام عليه السلام بتعداد بعض خصائص النبي الخاتم وصفاته الكريمة التي استوجب بها تلك المكانة الرفيعة عند الله تعالى، ولاشكَّ أن تعداد تلك الصفات تذكير للناس بعظيم مكانة نبيهم واستحقاقه تلك المنزلة الرفيعة عند الخالق سبب لإيجاب تعظيمهم لمكانته وتقديسهم لذكره فقد أنقذهم الله تعالى به.

وإذا كان التوكل على الله من صفات العبد المؤمن فإنا نجد الإمام علي بن الحسين عليه السلام من أشدِّ المتوكلين على الله، مفوضا إليه أمره، وموكلا إليه كل ما أهمَّه ،ويعلم أتباعه وأصحابه أن يتوكلوا على الله فهو كافيهم، يقول عليه السلام في بعض أدعيته:))يا مَنْ تَحل بِه عُقَدُ الْمَكَارِه، وَيا مَنْ يُفْثَأُ بِه حَدُّ الشَّدائِد، وَيا مَنْ يُلْتَمَسُ مِنْهُ الْمَخْرَجُ الى رَوْحِ الْفَرَجِ، ذَلَّتْ لِقُدْرَتِكَ الصِّعابُ، وَتَسَبَّبَتْ بِلُطْفِكَ الْسْبابُ، وَجَرى بِقُدْرَتِكَ الْقَضاءُ، وَمَضَتْ عَلى ارادَتِكَ الاشْياءُ، فَهِيَ بِمَشِيَّتِكَ دُونَ قَوْلِكَ مُؤْتَمِرَةٌ، وَبِإِرادَتِكَ دُونَ نَهْيِكَ مُنْزَجِرَةٌ، اَنْتَ الْمَدْعُوُّ لِلْمُهِمّاتِ، واَنْتَ الْمَفْزَعُ في الْمُلِمّاتِ، لا يَنْدَفِعُ مِنْها الّا ما دَفَعْتَ، وَلا يَنْكَشِفُ مِنْها الّا ما كَشَفْتَ...))[٧٦]، يلاحظ في هذه الفقرة من دعائه عليه السلام تقرير العبد أن الأشياء في هذا الوجود كلها ذليلة لقدرة الله تعالى وهي مسارعة للاستجابة لمشيئته، وأن هذا الوجود ينزجر إذا نهاه الله تعالى عن أمر، ثم إن من يمتلك هذه القدرة العظيمة لا ريب سيكون ملجأ للطلبة والسؤال وكهفا

للخائفين وملاذا للسائلين فلابد أن يرب العبد إليه؛ إذ بيده تسيير الأمور ولا يعجزه شيء منها. ويستمر دعاؤه في أجواء غاية في التوكل والاستسلام لإرادة الله تعالى .

يتدفق الإيمان في كل جملة من أدعية الإمام زين العابدين ومناجاته، ويؤكد عليه السلام أنَّ معرفة الله تعالى لا تحتاج من الفرد إلى كثير من التفكر والتدبر؛ فهو أوضح من أن يستتر عن عباده: ((سُبْحانَكَ ما أَضْيَقَ الطُّرُقَ عَلى مَنْ لَمْ تَكُنْ دَليلَهُ،وَما أَوْضَحَ الحَقَّ عِنْدَ مَنْ هَدَيْتَهُ سَبيلَهُ، إلهي فَاسْلُكْ بنا سُبُلَ الوُصُولِ إلَيْكَ وَسَيِّرْنا في أَقْرَبِ الطُّرُقِ لِلْوُفُودِ عَلَيْكَ وَقَرِّبْ عَلَيْنا البَعيدَ وَسَهِّلْ عَلَيْنا العَسيرَ الشَّديدَ))[٧٧]، وكان عليه السلام يناجي ربَّه في السحر من ليالي شهر رمضان قائلا: ((وأَعْلَمُ أَنَّكَ لِلرَّاجي بمَوْضِعِ إجابَةٍ وَلِلْمَلْهُوفينَ بمَرْصَدِ إغاثَةٍ، وَأَنَّ في اللَّهْفِ إلى جُودِكَ، وَالرِّضا بقَضائكَ عِوَضا مِنْ مَنْعِ الباخِلينَ، وَمَنْدُوحَةً عَمّا في أَيْدي المُسْتَأْثِرينَ، وَأَنَّ الرَّاحِلَ إلَيْكَ قَريبُ المَسافَةِ، وأَنَّكَ لاتَحْتَجِبُ عَنْ خَلْقِكَ إلّا أَنْ تَحْجُبَهُمُ العْمالُ دُوَنَكَ))[٧٨].

نعم إن الله تعالى قريب من العباد فقد قال تعالى ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[٧٩]، وقال عزوجل ﴿وَإِذا سَأَلَكَ عِبادي عَنِّي فَإِنِّي قَريبٌ أُجيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ فَلْيَسْتَجيبُوا لي وَلْيُؤْمِنُوا بي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[٨٠]، لذا نرى الإمام عليه السلام يؤكد أنَّ الله تعالى لطيف بعباده وكافل من توكل عليه ولا يتطلب الأمر من العبد غير العبادة الحقَّة، لذا نراه يقرر في رسالة الحقوق أن أوَّلَ الحقوق الواجبة على العبد حق العبادة المخلصة لله تعالى، إذ يقول عليه السلام: ((فأما حق ال الكبر فإنك تعبده لا تشرك به شيئا، فإذا فعلت ذلك بإخلاص جعل لك عل نفسه أن يكفيك أمر الدنيا والآخرة ويفظ لك ما تب منها))[٨١]، وهكذا يضع الإمام زين العابدين عليه السلام معادلة متساوية الطرفين، طرفها الأول: عبادة مخلصة لله تعالى دون شرك تعادل في طرفها الثاني (ان يكفيك الله أمر الدنيا ويحفظ لك منها ما تحب) واي شيء يحب الإنسان في هذه الدنيا غير زينتها الأموال والبنين والجاه العريض بين الناس، كل هذه يتكفل بها الله تعالى للعبد في دنياه إذا كان العبد مخلصا في عبوديته لله تعالى ولا يشرك بربه أحدا .

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام في دعائه الشهير الذي كان يدعو به في السحر ،ولقنه لتلميذه أبي حمزة الثمالي: ((سَيِّدِي أَنَا الصَّغِيرُ الَّذِي رَبَيْتَهُ وَأَنَا الجاهِلُ الَّذِي عَلَّمْتَهُ وَأَنَا الضَّالُّ الَّذِي هَدَيْتَهُ وَأَنَا الوَضِيعُ الَّذِي رَفَعْتَهُ وَأَنَا الخائفُ الَّذِي آمَنْتُهُ وَالجائعُ الَّذِي أَشْبَعْتَهُ وَالعَطْشانُ الَّذِي أَرْوَيْتَهُ وَالعاري الَّذِي كَسَوْتَهُ وَالفَقِيرُ الَّذِي أَغنَيْتَهُ وَالضَّعِيفُ الَّذِي قَوَّيْتَهُ وَالذَّلِيلُ الَّذِي أَعْزَزْتَهُ وَالسَّقِيمُ الَّذِي شَفَيْتَهُ وَالسَّائلُ الَّذِي أَعْطَيْتَهُ وَالمُذْنبُ الَّذِي سَتَرْتَهُ وَالخاطِئُ الَّذِي أَقلْتَهُ، وَأَنا القَلِيلُ الَّذِي كَثَّرْتَهُ وَالمُسْتَضْعَفُ الَّذِي نَصَرْتَهُ وَأَنا الطَّرِيدُ الَّذِي آوَيْتَهُ))[٨٢]، يتذكر العبد آلاء الله عليه ونعمه المتوالية لديه فمنذ الصغر ترعاه عناية الله فتربيه وتنتقل العناية به حالا بعد حال فتعلمه بعد جهله وتهديه من ضلاله، وترفع شأنه بعد ضعته وترزقه بعد فقره وتشبعه بعد جوع وهكذا تتوالى النعِم على العبد، ولكن العبد يقابل ذلك الإحسان بالجحود والمعصية، واقتراف الذنوب، وسرعان ما يعود المؤمن إلى ساحة ربِّنه فيرجو الرحمة الإلهية معترفا بذنبه وتقصيره طالبا العفو والصفح من الغني المطلق .إن هذا الإحصاء من الإمام عليه السلام لأنعم الله على العباد كفيل بأن يقتلع جذور الوثنيَّة وبذور الشرك من نفوس المرتابين والكافرين ويرجع بالنفوس المضطربة إلى جادَّة الصواب، لتنبذ الهواجس من القلوب وتطرح الشبهات من العقول وتخلصها إلى عبادة الله الواحد الأحد مخلصة له في العبودية[٨٣].

إنَّ تقصي حالات الإيمان المطلق والعبوديَّة الحقَّة في أدعية الإمام علي بن الحسين عليه السلام لا تسعه آلاف الصفحات التي يمكن كتابتها في تحليل أدعية الإمام عليه السلام المتواترة عنه في الصحيفة السجاديَّة أو غيرها وكانت واحدة من فوائد تلك الأدعية العودة بأفراد المجتمع إلى أسس الإسلام الأولى القائمة على التوحيد والإخلاص في العبادة والعبودية، يتلمس تلك الأصول بحرارة وشوق وينميها في نفوس الأفراد، بعد أن تعرضت تلك الأسس في نفوس بعض الأفراد إلى الاهتزاز والتراخي في ظل حكم بني أميَّة. فيحيي من خلالها أولئك الأفراد حياة يريدها الله ورسوله حياة قائمة على العلم والعمل وبناء الذات والترقي بالمجتمع إلى درجات الكمال.

الرحمة

تمثل الرحمة في نفوس الأفراد سمة من سمات الإنسانية وهي صفة تحيي الفرد ،وتنقله من مراتب الحيوانية إلى مراتب الآدمية والإنسانية، وقد حثت تعاليم السماء على الرحمة، وندبت إليها وكانت صفتا (الرحمن والرحيم) من أكثر الصفات تكرارا في القرآن الكريم؛ فقد تكررت لفظة (الرحمن) في القرآن المجيد ١٥٧ مرَّة وتكررت لفظة (الرحيم) ١٤٦ مرَّة، وتكررت هاتان الصفتان في بداية كل سورة من سور القرآن الكريم إشعاراً للعباد برحمته الله ولطفه بهم، ثم إن الله تعالى وصف نفسه (بذي الرحمة) مرتين قال تعالى ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحمَةِ﴾(٨٤)، وقال عزَّ من قائل ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحمَةِ﴾(٨٥)، وإشاعة من الباري عزوجل للأمل فقد أعلن لعباده عن رحمته الواسعة قائلا ﴿قالَ عَذابي أُصيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ وَرَحمَتي وَسِعَتْ كُلَّ شيَءٍ﴾(٨٦) وقال تبارك وتعالى ﴿قُلْ لِمَنْ ما فِي السَّماواتِ وَالاَرْضِ قُلْ للهِ كَتَبَ عَل نَفْسِهِ الرَّحمَةَ﴾(٨٧)، كل هذه الآيات الكريمات تنبه العباد على أهمية التراحم فيما بينهم وأن العبد المؤمن يجب أن يحيي في قلبه الرحمة للناس كلهم لأنها من صفات الخالق والعبد واجب عليه أن يتأسى بصفات ربِّنه.

كان الإمام علي بن الحسين عليه السلام أرحم الناس بمن حوله ولم يفرق في رحمته بين أهل بيته وعبيده وسائر الناس بل شملت رحمته أعداءه، وكل ذلك إشعارٌ منه لنا بأهميَّة التراحم بين الناس لأنه سبيل لإحياء الفرد وضمان كرامته وعزته ومن ثم تكون الرحمة سببا للإيمان والترقي في مراتب الكمال.

مرَّ علينا آنفا كيف أن الإمام عليه السلام كان يرحم عبيده فكلما أخطأ العبد منهم رحمه وغفر له بل قد يعتقهم إذا رأى أن في ذلك صلاحا لهم، فقد أعتق مملوكة له رحمة بها حينما سقط من يدها إبريق الماء على وجهه الشريف، وأعتق غلاما تسبب في مقتل ابن له خطأ وأعتق غلاما لمَّا لم يجب نداءه، وهكذا كان إمامنا يرحم هؤلاء الأفراد ويلطف بهم إحياء منه لهم وتكريما لإنسانيتهم. وبذا كان إمامنا مثلا أعلى بين الخلق في الرحمة .

من مظاهر الرحمة التي كان يتحلى بها الإمام زين العابدين عليه السلام أنه يعامل مربيته مثلما يعامل الفرد الرحيم أمَّه فعلى شدَّة محبته لها وبره بها كان يأبى أن يشاركها الطعام في إناء واحد، فلما سُئل عن ذلك قال: ((إني أكره أن تسبق يدي إلى ما سبقت عينها إليه))...[٨٨]، ومن مظاهر الرحمة التي كان يمارسها الإمام زين العابدين عليه السلام إعالته للفقراء والمساكين من أهل المدينة فقد ((كان يعول مائة أهل بيت من فقراء المدينة ،وكان يعجبه أن يضر طعامه اليتامى والاضراء والزمنى والمساكين الذين لا حيلة لهم، وكان يناولهم بيده، ومن كان له منهم عيال حله من طعامه إلى عياله، وكان لا يأكل طعاما حتى يبدأ ويتصدق بمثله))[٨٩].

لقد تجاوزت حدود الرحمة عند الإمام زين العابدين عليه السلام ما يتعارف عليه البشر وسمت به نفسه الكريمة إلى أن يرحم أعداءه ومن يلحقون الأذى به فقد كان والي المدينة هشام بن إسماعيل المخزومي، قد أساء جوار الإمام، ولحقه منه أذى كثير، فلما مات عبد الملك، عزله الوليد بن عبد الملك، وأوقفه للناس؛ كي يقتصوا منه، فقال:

«والله إني لا أخاف إلا علي بن الحسين، فمر عليه الإمام عليه السلام، وسلم عليه، وأمر خاصته أن لايتعرض له أحد بسوء، وأرسل له: ((إن كان أعجزك مال تؤخذ به ،فعندنا ما يسعك، ويسد حاجتك، فطب نفسا منا، ومن كل من يطيعنا))، فقال له هشام بن إسماعيل: الله أعلم حيث يجعل رسالته»[٩٠]، إن رحمة الإمام عليه السلام لأعدائه كانت أنموذجا مثاليا لا يقوم به إلا من تحلى بخلق السماء وآمن بها عن يقين، فالإمام عليه السلام لَمَّا كان خليفة الله في أرضه كان أكثر عباده اتصافا بصفات الباري وقربا منها ،فنراه يعفو ويرحم ولا يضره شيء ولا يسعى إلى التشفي بمن كان يؤذيه بل يغفر ويصفح ويلتمس الأجر من عند الغني المطلق ولقد كانت فائدة تلك الرحمة أن هذا الفرد أصبح محبا للإمام عليه السلام ومعترفا بفضله عليه .

إن عفو الإمام عليه السلام عن المذنبين كانت غايته إحياء هؤلاء الأفراد وإعادتهم إلى ساحة الإنسانية، بعد أن ابتعدوا عنها. لم يكتف زين العابدين عليه السلام بممارسة الرحمة عمليا وإن كانت هي الأعمق تأثيرا في النفوس، بل كان ينتهز الفرص فيوصي أصحابه بالرحمة في طائفة من

الأفراد فقد جاء في رسالة الحقوق قوله: ((وحق الصغير رحته في تعليمه، والعفو عنه، والستر عليه، والرفق به، والمعونة له))... [٩١]، فالصغير سواء أكان ابنك أم لا فله حق عليك أن تعلمه لأنك بتعليمك له تكون قد رحمته مما يلكه، وهذا التعليم مهما كان قليلا فهو رحمة منك له وبناء للبشرية ومظهر من مظاهر الإنسانية وبه إحياء للفرد.

ويستمر الإمام علي بن الحسين عليه السلام في تعداد من له حق الرحمة عليك فهنالك أكثر من شخص عليك أن ترحمه فيقول: ((وأما حق الزوجة فأن تعلم أن الله عز وجل جعلها لك سكنا وأنسا، فتعلم أن ذلك نعمة من الله عز وجل عليك فتكرمها وترفق بها، وإن كان حقك عليها أوجب، فان لها عليك أن ترحمها ،لانها أسيرك ،وتطعمها وتكسوها، وإذا جهلت عفوت عنها،...، وأما حق الصاحب فأن تصحبه بالتفضل والإنصاف، وتكرمه كما يكرمك ... (الى أن يقول...) وكن عليه رحمة، ولا تكن عليه عذابا، وحق المستنصح أن تؤدي إليه النصيحة، وليكن مذهبك الرحمة له والرفق، وحق الناصح أن تلين له جناحك وتصغي إليه بسمعك. فإن أتى بالصواب حمدت ال عز وجل، وإن لم يوافق رحمته ولم تتهمه))... [٩٢].

لقد احتلت الرحمة مساحة واسعة في رسالة الحقوق، إذ أوصى بها إمامنا وعدَّها حقا من الحقوق الواجبة على الفرد تجاه الصغير، والزوجة، والصاحب، والمستنصح ،والناصح، فهؤلاء خمسة أصناف، ممن يحيطون بك لهم عليك حق الرحمة، إحياءً لهم ولطفا بهم، ثم لا يكتف الإمام عليه السلام بالرحمة لهؤلاء فحسب، بل يقرر أنَّ الرحمة حق واجب عليك لأهل ملتك جميعا؛ إذ يقول: ((وحق أهل ملتك إضمار السلامة والرحمة لهم، والرفق بمسيئهم وتألفهم، واستصلاحهم))... [٩٣]، فهذه قاعدة عامة أن ترحم أهل ملتك والملة هنا تشمل كل جماعة تجمعهم بك صلة فالمسلمون إذا ما وازنتهم بغير المسلمين فهم أهل ملتك والموحدون إذا ما قستهم بغير الموحدين يكونون أهل ملتك، ثم أهل مذهبك أهل ملتك وخاصتك، ثم أهل صنفك في العمل أهل ملتك، وهكذا قد يتوسع هذا المفهوم ليشمل مصاديق عديدة،

وبذا تكون الرحمة واجبة لهؤلاء كلهم، وعندها سنجد أن الرحمة سمة إنسانية تعمل على إحياء الأفراد، ورفع مكانتهم وإيصالهم إلى مراتب الإنسانية العليا.

تجاوزت رحمة الإمام عليه السلام بني آدم فقد كان يرحم الحيوان مشعرا أن الإنسان بحكم ولايته على الأرض وخلافته لله تعالى عليه أن يحسن التصرف فيما أولاه الله تعالى من النعم وأن يرحمها، تذكر الروايات أن الإمام عليه السلام كانت له ناقة يحج عليها سنين طوال ((فما قرعها بسوط ولقد بركت به سنة من سنواته فما قرعها بسوط))[٩٤]، ويروي لنا الإمام الصادق عليه السلام ذلك قائلا: ((قال علي بن الحسين لابنه محمد حين حضرته الوفاة، إني قد حججت على ناقتي هذه عشرين حجة فلم أقرعها بسوط قرعة، فإذا نفقت فادفنها لا يأكل لحمها السباع، فان رسول الله صلى الله عليه وآله قال: كل بعير يوقف عليه موقف عرفة سبع حجج إلا جعله ال من نعم الجنة، وبارك في نسله، فلما نفقت حفر لها أبو جعفر عليه السلام ودفنها))[٩٥]، يلاحظ أن رحمة الإمام عليه السلام قد وسعت الحيوان فضلا عن الإنسان ولاشكَّ أن شيوع الرحمة بهذا الشكل في نفس الإنسان مدعاة للفخر والاعتزاز وهي اقتراب من قيم السماء وتمثل لها،وهي من درجات الإيمان العليا التي تدفع المؤمن إلى محاكاة صفات الباري عزوجل ،ويقينا أن شيوع الرحمة في المجتمع كانت غاية من غايات الإمام زين العابدين عليه السلام لأنها سبب لإحياء الأفراد.

الحِلْم

لقد وصف الله ذاته المقدسة بأنَّه حليم في اثني عشر موضعا في القرآن الكريم ،في ستة مواضع منها كان يرافق هذه الصفة صفة الغفور، فيقول تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[٩٦]، ومعنى الحلم «الإمهال بتأخير العقاب على الذنب، وأصل الباب الحلم: الأناة»[٩٧]، ويبيِّن لنا الإمام علي بن الحسين عليه السلام سبب حلم الله تعالى بعباده في واحد من أدعيته التي كان يناجي بها ربه إذ يقول: ((إِلَهِي إِنْ رَفَعْتَنِي فَمَنْ ذَا الَّذِي يَضَعُنِي ،وإِنْ وَضَعْتَنِي فَمَنْ ذَا الَّذِي يَرْفَعُنِي، وإِنْ أَكْرَمْتَنِي فَمَنْ ذَا الَّذِي يُهِينُنِي، وإِنْ أَهَنْتَنِي فَمَنْ ذَا الَّذِي يُكْرِمُنِي، وإِنْ عَذَّبْتَنِي فَمَنْ ذَا الَّذِي يَرْحَمنِي، وإِنْ أَهْلَكْتَنِي فَمَنْ ذَا الَّذِي يَعْرِضُ لَكَ فِي عَبْدِكَ، أَوْ يَسْأَلُكَ عَنْ أَمْرِه، وقَدْ عَلِمْتُ أَنَّه لَيْسَ فِي حُكْمِكَ ظُلْمٌ، ولَا فِي نَقِمَتِكَ عَجَلَةٌ، وإِنَّمَا يَعْجَلُ مَنْ يَخَافُ الْفَوْتَ، وإِنَّمَا يحْتَاجُ إِلى الظُّلْمِ الضَّعِيفُ، وقَدْ تَعَالَيْتَ يَا إِلَهِي عَنْ ذَلِكَ عُلُوّاً كَبِيراً))[٩٨]، فمع استحقاق العبد للعقوبة بما اقترفت يداه وقدرة الباري على إنزاله به في أيَّ وقت يشاء إلاَّ أنَّ الله تعالى يمهل العبد وقتا طويلا رجاء للتوبة وأملا في العودة إلى ساحة الرحمة الإلهية، ولماذا يعجل الله تعالى على العبد في العقوبة ومصيره إليه ومآله إلى محكمته وأمره بيده عز شأنه لا يخرج عن حكمه شيء، فكانت الحكمة من الحلم على العباد رجاء توبتهم ومنحهم فرصة جديدة لإحيائهم ورجوعهم إلى العبودية بعد أن خرجوا بالمعصية من ساحة الطاعة الإلهية، ولَّما كانت فلسفة الحلم تقوم على منح الآخر فرصة ثانية مع قدرة الحليم عليه وتمكنه منه كانت هذه الصفة حياة أخرى حياة جديدة للفرد، فهي وسيلة من وسائل إحياء الفرد كلما أماتت قلبه الذنوب والمعاصي.

كانت سياسة الإمام عليه السلام في الإحياء تقوم على ترسيخ المفاهيم الإحيائية السماوية، فلما كان الله تعالى حليما بعباده، فمن الحسْنِ أن يكون العبدُ متصفا بهذه الصفة، لذا نرى الإمام زين العابدين حليما، ويدعو إلى الحِلْم، فعن أبي جعفر عليه السلام قال: ((كان علي بن الحسين عليه السلام يقول: انه ليعجبني الرجل أن يدركه حلمه عند غضبه))[٩٩]، ويقينا أن ما يعجب الإمام عليه السلام صفة

محبذة شرعا، ويلاحظ أن الإمام عليه السلام يخص الحلم أن يكون وقت الغضب، لأن الغضب من الأوقات التي تخرج الفرد عن مساره العقلي الصحيح فقد يجور في حكمه وقد يطيش في تصرفه، وهذان الموردان أدعى للمؤمن أن يمسك فيهما نفسه فيحلم على أخيه وإن كان قد تجاوز عليه فيمنحه فرصة جديدة ليعود إلى رشده ولعله يعتذر عن خطأه وينقلب معتذرا،وبذلك يكون الحلم من الوسائل التي تكمل شخصية الفرد المثالية والتي ترتقي به في مدارج الكمال والتكامل.

وقد عدَّ الإمام زين العابدين عليه السلام الحلم من مكملات شخصية العبد المسلم إذ يقول: ((إن المعرفة بكمال دين المسلم تركه الكلام فيما لا يعنيه، وقلة مرائه، وحلمه ،وصبره، وحسن خلقه))[١٠٠]، إذن هذه الصفات الخمس يكمل بعضها بعضا ،وتعمل على إكمال مواصفات العبد المسلم. وهكذا يؤكد الإمام زين العابدين عليه السلام أنَّ الحلم صفة من صفات المؤمن فيقول: ((علامات المؤمن خمس: الورع في الخلوة ،والصدقة في القِلَّة، والصبرُ عند المصيبة، والحِلْمُ عند الغضب، والصدقُ عند الخوفِ))[١٠١]، خلاصة الأمر أن الحلم يمثل فرصة جديدة يمنحها الحليم للآخر فهي من وسائل الإحياء التي رعتها السماء، وكانت للبشر نقطة انطلاق جديدة نحو ساحة العفو الإلهي للعودة إلى عبادة الله والخضوع لإرادته كلما زلت قدم الإنسان به في متاهات هذه الحياة الدنيا. وقد اعتمد الإمام علي بن الحسين عليه السلام على هذه الصفة في سياسته الإحيائية وقت إمامته، فمنح بها فرصا لإحياء بعض الأفراد العصاة. كانت هذه ثلاثة أسس اعتمدها الإمام علي بن الحسين عليه السلام في الإحياء المعنوي للأفراد، ويقينا أنَّ هناك أسسا مقومة للحياة المعنوية غيرها ولكن لضيق المقام اقتصرنا على هذه الثلاثة.

المبحث الثالث

حياة المجتمع ومقومات إحيائه

مقومات إحياء المجتمع تكمن في جانبين مهمين:

الجانب الاول: تعزيز الظواهر الإيجابية في المجتمع، وتقوية الأواصر الاجتماعية بين أفراد المجتمع وتمتينها، ويمكن تحقيق ذلك بمجموعة من النشاطات الاجتماعية منها:

تكوين الاسرة الصالحة:

حرص الإمام عليه السلام على أن تعيش الأسرة في أجواء هادئة مطمئنة وذلك بتنظيم العلاقات والروابط التي تحكم نسيج هذه البنية الاجتماعية فقد بيّن في (رسالة الحقوق) واجبات كل فرد من أفراد الأسرة ووضح حقوقه على الآخرين، وبدأ مع الإمام عليه السلام ببيان حقوق الأبوين إذ هما الدعامتان الرئيستان فيهذا الهيكل ،ويقدم حق الأم على الأب عناية بها ورعاية لعظيم منزلتها في الأسرة فهي الأساس المتين وهي نظام الأسرة فيقول عليه السلام في حقها: ((وأما حق أمك أن تعلم أنها حلتك حيث لا يتمل أحد أحدا، وأعطتك من ثمرة قلبها ما لا يعطي أحد أحدا، ووقتك بجميع جوارحها، ولم تبال أن تجوع وتطعمك وتعطش وتسقيك، وتعرى وتكسوك وتضحي وتظلك، وتهجر النوم لجلك ووقتك الحر والبرد لتكون لها وأنك لا تطيق شكرها إلا بعون الله وتوفيقه))[١٠٢]، يبيِّنُ الإمام عليه السلام بالتفصيل أن أكبر فضل للأمعلى الفرد أنها حملته في أحشائها، وتحملت لأجله ما لا يحتمل أحد من أجل آخر ،وأعطته من قواها ومن عناصر جسمها، فهي تبني ولدها بهرم جسمها وقد اثبت العلم الحديث أن الأم قد تفقد كثيرا من الكالسيوم في أثناء الحمل لأنه تغذي ولدها به ما يجعلها بعد الولادة تعاني من نقص كبير في هذا العنصر قد يؤدي بها إلى سقوط بعض أسنانها أو استهلاك بعض مفاصلها، من هنا كان الإمام عليه السلام يبيِّنن أنها تعطي ولدها من ثمرة قلبها ما لا يعطيه معط لفرد آخر مهما كان عزيزا، ثم بعد الولادة تبدأ مرحلة جديدة من المعاناة والألم والتعب، تكابدها بفرح وشغف وحب وحنان، لا تظهر جزعا، ولا تعبا

حتى ترى ولدها أصبح رجلا فإذا بها تستشعر ألم تلك الأيام وتجد نفسها قد تعبت في تربيته وهرمت لأجله وأفنت زهرة شبابها من أجل هذه الأسرة، ولعمري أن حق الأم عظيم لا يفي به إلا من وفقه الله لذلك.

ثم ينتقل عليه السلام إلى بيان حق الأب: ((وأما حق أبيك فأن تعلم أنه أصلك؛ فإنه لولاه لم تكن، فمهما رأيت من نفسك ما يعجبك، فاعلم أن أباك أصل النعمة عليك فيه، فاحد ال، واشكره عل قدر ذلك، ولا قوة إلا بال))[١٠٣]، يذكر الإمام عليه السلام كل فرد في هذه الأسرة بعظيم منزلة الأب وحقه الكبير بينهم فهو الأصل في تكوين هذه الأسرة فقد أجهد نفسه وبذل ماله ووقته في تكوينها وحرص على تأمين مستلزمات العيش الكريم لأفرادها وهيأ لها الأجواء الآمنة المستقرة لتنعم بالطمأنينة والراحة وفي ظل هذه الأجواء تمكن الأبناء من تحقيق أهدافهم،ووصلوا إلى مراحل متقدمة في المجتمع بفضل آبائهم، لذا يجب على الفرد أن يحمد الله على نعمة الأب الصالح وأن يشكر الأب على ما بذل طول سنوات عمره لإنجاح الأسرة وصلاحها.

ينتقل الإمام عليه السلام بعد ذلك لبيان حق الأبناء على الآباء فيقرر قائلا: ((وأما حق ولدك فأن تعلم أنه منك ومضاف إليك في عاجل الدنيا بخيره وشره، وإنك مسؤول عما وليته من حسن الدب، والدلالة عل ربه عز وجل، والمعونة عل طاعته ،فاعمل في أمره عمل من يعلم أنه مثاب عل الإحسان إليه، معاقب على الإساءة إليه))[١٠٤]، يضعك الإمام عليه السلام أمام حقيقة قد يرب منها بعض الآباء المقصرين في تربية أولادهم إذ يقولون: إن الابن هو المسؤول عن تصرفاته، فيصدمك الإمام بحقيقة أن الابن منك فإن حَسُنَ خلقه فلحُسنِ خلقك وتربيتك وإن ساء أدبه فلسوء تربيتك وقلة عنايتك به، وأن الأب سيلقى أثر ذلك في الدنيا قبل الآخرة فقد يجلب الابن غير الصالح كثيرا من المشاكل لأسرته حتى وإن هجرها أو طرده الأب من فناء هذه الأسرة إلاَّ أن مشاكله ستبقى تلحق الأذى بها ولا تنفك تنغص حياة الأسرة، أما في الآخرة فليعلم الأب أنه محاسب بشدة عن تربية الابن،

لأن الأبناء يولدون على الفطرة السليمة ويؤمنون بالله تعالى على الفطرة لكن الأب والبيئة قد تحرف تلك الفطرة إلى ما لا تحمد عقباه، لذا فمن واجب الأب أن يوفر الأجواء الصالحة لتعليم الأبناء وتربيتهم تربية صحيحة سليمة غير منحرفة، وجزاء ذلك ملاقيه في الدنيا وملاقيه في الآخرة.

يواصل الإمام عليه السلام بعد ذلك بيان حق الأخ على أخيه فيقول: ((وأمَّا حق أخيك فان تعلم أنه يدك وعزك وقوتك فلا تتخذه سلاحا عل معصية الله، ولا عِـدَّة للظلم لخلق ال، ولا تدع نصرته عل عدوه، والنصيحة له، فان أطاع الله، وإلا فليكن الله أكرم عليك منه، ولا قوة إلا بالله))[١٠٥]، هكذا يرسم الإمام الخطوط الفاصلة بين الحق والباطل، فلأخيك حق عليك وهو ناصرك وعضدك ولكن لتكن قوتكما في فعل الخير للمجتمع ولا تتآزرا على معصية الله داخل الأسرة أو خارجها، ولا تجعل قوَّتك بكثرة إخوتك ومنعتهم دونك سببا لظلم عباد الله بل اجعل نصره لك ونصرك له لدفع الظلم وإحقاق الحق وإشاعة الفضيلة في المجتمع، ويجب عليكنصرته عندما يكون على الحق ونصحه عندما يشرف على الخطأ، ولا تتبعه إن لم يسمع النصح وزلت به قدمه إلى معصية الخالق أو التجاوز على حقوق الآخرين لأنه لا يملك لك من دون الله شيئا، إذا ظلمت نفسك أو ظلمت فردا آخر .

أما حق الزوجة فيقول فيه إمامنا زين العابدين عليه السلام: ((وأما حق الزوجة فأن تعلم أن ال عز وجل جعلها لك سَكَنا وأُنسَا، فتعلم أن ذلك نعمة من الله عز وجل عليك، فتكرمها، وترفق بها، وإن كان حقك عليها أوجب، فإن لها عليك أن ترحها ،لنها أسيرُك، وتطعمها وتكسوها، وإذا جهلت عفوت عنها))[١٠٦]، نلاحظ أن كلام الإمام عليه السلام في تقرير حق الزوجة كله لطف ورقة ورأفة، فهو يذكر الزوج بأن هذه المرأة التي تعيش معه يجب أن تبنى العلاقة فيما بينهما على الرحمة، والودِّن، والرفق ،وأن على الزوج أن يتلطف بها ويكرمها ويرحمها لأنها لا تملك دون عطفه وحبه شيئا فإنها قد تركت الأهل والعز في كنف أسرتها وأبيها ورضيت أن تعيش معك وأنت غريب عنها وتعاقدتما بعقد الله أن تمكنك من نفسها

وتمتعك وصار لزاما عليك إطعامها وحمايتها وكسوتها وأن تعاشرها بمعروف، فأصبحت أسيرة عندك فتجب لها حقوق الأسرى من التكريم والعناية الفائقة والرعاية الكريمة.

ثم يستمر الإمام عليه السلام في بيان حق العبد الذي تملكه مباشرة بعد حقوق الزوجة مباشرة ليشعرك أنه جزء من عائلتك وأنك مسؤول منه فيقول: ((وأما حق مملوكك فأن تعلم أنه خَلقُ ربِّكَ، وابنُ أبيكَ وأمِّكَ، ولحمك ودمك، لم تملكه لنك صنعته دون الله، ولا خلقت شيئا من جوارحه، ولا أخرجت له رزقا، ولكن الله عز وجل كفاك ذلك، ثم سخره لك، وائتمنك عليه، واستودعك إياه، ليحفظ لك ما تأتيه من خير إليه، فأحسن إليه، كما أحسن الله إليك، وإن كرهته استبدلت به، ولم تعذب خلق الله عز وجل، ولا قوة إلا بالله))[١٠٧]، والحق إنه لكلام تقشعر من عظمته الأبدان إذ يبيَّن الإمام عليه السلام أن هذا العبد الذي تملك رقبته مساو لك من كل الجهات فخالقكما واحد وأبوكما واحد وأمكما واحدة وجنسكما واحد فأنت من لحم ودم، وهو كذلك ،ثم إنَّ الله قد سخره لك، وينبه الإمام عليه السلام العبد أمانة عندك ووديعة استودعك الله إياها، فمن يراعي هذه المعاني العظيمة كيف له أن يضرب عبده ونلاحظ بوضوح أنَّ الإمام عليه السلام لم يسمه عبدا، فالعبودية لله تعالى وهو يريد تحرير الإنسان وإحياءه ن فسماه (مملوكك) وجعل ذكر حقوقه بعد حقوق الزوجة مباشرة وكأنك تسلطت على رقبة الزوجة ورقبة العبد بما آتاك الله من رزقه وفضله فعليك أن تشكر الله على هذه النعم ون تحسن إليها، وتحييها حياة كريمة لا إهانة فيها ولا تسلط ولا عبوديّة ن فكل فرد في المجتمع له وظيفة يؤديا ولا يحق له التجاوز على الآخرين.

لقد رتب الإمام عليه السلام الحقوق في تسلسل هرمي بديع سلسلة الحقوق التي تبنى عليها الأسرة الناجحة مبتدأ من الأسس الرافعة لهيكل الأسرة منتهيا بمكملاتها وهم المملوكون ففصّل حدود كل فرد، فوالله إنَّ أسرة تراعى فيها هذه الحقوق لحريٌّ بها أن تكون مثالا ناجحا في مجتمع فاضل، كان الإمام عليه السلام واعيا تماما لمكانة كل فرد من أفراد الأسرة وما يجب له وما يجب عليه فبيَّن ذلك آمرا أتباعه ومن تصله وصيته عبر السنين أن ينهجوا هذا الطريق

في تنظيم العلاقة بينهم لينعم كل منهم بحقوقه كاملة وينعم معه المجتمع بحياة طيبة. ويقينا أن تسطير هذه الحقوق بهذه الدقة والشمولية هدفه عند الإمام إحياء الأفراد وإحياء المجتمع بعد أن اضطربت حياته وأضحت مهددة في جوانب كثيرة منها.

إشاعة المودَّة والإخاء

حرص الإمام عليه السلام في تعاليمه وسلوكه العملي على إشاعة المودَّة والإخاء بين أفراد المجتمع لينمي فيهم الألفة والمودة والمحبة ويحيي فيهم النفوس المحبة للخير ،وبداية الألفة تكمن في إفشاء السلام بين الناس فهو مدعاة للمودة بينهم، وقد عدَّ الإمام عليه السلام البدء بالسلام من صفات المؤمن، إذ يقول عليه السلام: ((من أخلاق المؤمن الإنفاق عل قدر الإقتار، والتوسع عل قدر التوسع، وإنصاف الناس، وابتداؤه إياهم بالسلام عليهم))[١٠٨]، ومن بعد السلام يأتي الذكر الطيب للآخرين، فكان علي بن الحسين عليه السلام يحث عليه، فيقول: ((إن الملائكة إذا سمعوا المؤمن يدعو لاخيه المؤمن بظهر الغيب أو يذكره بخير قالوا: نعِمَ الاخُ أنت لاخيك، تدعو له بالخير وهو غائب عنك، وتذكره بخير، قد أعطاك ال عز وجل مثل ما سألت له، وأثنى عليك مثل ما أثنيت عليه، ولك الفضل عليه))[١٠٩]، الدعاء للمؤمنين والأصدقاء وذكرهم بكلمة طيبة مدعاة لإشاعة أجواء المحبة في المجتمع، وفيه إحياء لقيمة الإنسانية، ثم يترقى الإمام عليه السلام في تربيته لأصحابه إلى مرتبة أسمى وهي أن يسعى الأخ لقضاء حاجة أخيه المؤمن، يقول عليه السلام: ((وال لقضاء حاجته -يعني: الأخ المؤمن- أحب إلى الله عز وجل من صيام شهرين متتابعين واعتكافهما في المسجد الحرام))[١١٠]، هذا القسم من الإمام عليه السلام بالثواب الجزيل من الله الذي يفضل ثواب الصلاة والصيام معتكفا ،دافع كبير يحفز المؤمنين على التعاون فيما بينهم لقضاء حوائجهم متعاونين يرحم بعضهم بعضا ويساعد القوي الضعيف، وفي القيم حياة للمجتمع وإعمار للأرض بالخير والصلاح.

ولا يكتف الإمام عليه السلام بهذا القدر، بل يمارس بنفسه بعض الأنشطة التي تشيع المحبة بين أفراد المجتمع وتمتن أواصر الإخاء بينهم، فكان الإمام علي بن الحسين عليه السلام ((يعجبه أن

يضر طعامه اليتامى والاضراء والزمني والمساكين الذين لا حيلة لهم، وكان يناولهم بيده، ومن كان له منهم عيال حله من طعامه إلى عياله، وكان لا يأكل طعاما حتى يبدأ ويتصدق بمثله))[١١١]، هذه الممارسة العملية من الإمام عليه السلام وإشرافه بنفسه على إطعام الفقراء واليتامى والمرضى وأصحاب العاهات خطاب قويٌّ للمجتمع يصرخ فيهم أن ارحموا هؤلاء فهم أخوتكم في الدين والجنس وليس لكم أن تستنكفوا منهم ولما كان الإمام خليفة الله تعالى فإنا نراه أرحم الناس بهذه الفئة الضعيفة التي تستحق العطف والرعاية وكان عمله هذا حثًّا منه للمجتمع بتبني هؤلاء وعدم إهمالهم، ومنفذا وصية جده أمير المؤمنين عليه السلام حينما قال ((الله الله فِي الَايْتَام فَلَا تُغِبُّوا أَفْوَاهَهُمْ، ولَا يَضِيعُوا بحَضْرَتكُمْ))[١١٢]، وكان زين العابدين عليه السلام يدعو الناس إلى المحبة ويذكر لهم عظيم أجر المتحابين في الله، قائلا: ((إذا جمع الله الاولين والآخرين قام مناد فنادى يسمع الناس فيقول: أين المتحابون في الله؟ قال: فيقوم عنق من الناس فيقال لهم: اذهبوا إلى الجنة بغير حساب، قال: فتلقاهم الملائكة فيقولون إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة بغير حساب ،قال: ويقولون: وأي ضرب أنتم من الناس؟ فيقولون: نحن المتحابون في الله، قال:

فيقولون: أي شيء كانت أعمالكم؟ قالوا: كنا نحب في الله ونبغض في الله، قال: فيقولون: نعم أجر العاملين))[١١٣]، وهكذا كان الإمام عليه السلام يحرص كل الحرص على إشاعة مفاهيم المودة والمحبة والإخاء بين أفراد المجتمع لأنه على يقين من أنَّ هذه المفاهيم فيها إحياء لقيم الإسلام التي سعى بنو أميَّة إلى طمسها وتحريفها للسيطرة على الناس وحكمهم والتأمر عليهم وتحويلهم إلى عبيد بعد أن حررهم الله وأحياهم بدعوة نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله.

السماحة والتسامح والرأفة

من القيم التي تحيي المجتمع السماحةُ في الخلق، وتسامح أفراده فيما بينهم من حقوق، وإشاعة الرأفة بينهم، وكان الإمام زين العابدين عليه السلام يعمل على تنمية هذه المفاهيم بين أفراد المجتمع، ويبدأ بأهل بيته فنراه يوصي ولده بقوله: ((إن شتمك رجل عن يمينك ثم

تول إليك عن يسارك، فاعتذر إليك فاقبل عذره))[١١٤]، وليست هذه إلاَّ أخلاق الأنبياء التي تسع الناس وتعطف عليهم وتعفو عن المسيء ،بهذه البساطة والرفعة، وقال علي بن الحسين عليه السلام في تفسير قوله تعالى ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾[١١٥]، قال: ((العفو من غير عتاب))[١١٦]، فالإمام عليه السلام يدعو أتباعه ومحبيه ومن يسمع وصيته أن يترفعوا حتى عن المعاتبة ويصفحوا عن إخوانهم حينما يكون الصفح أجدى والعفو أرجى، فيذكر إمامنا العسكري عليه السلام أنَّ ((رجلا جاء إلى علي بن الحسين عليه السلام برجل، يزعم أنه قاتل أبيه، فاعترف، فأوجب عليه القصاص، فسأله أن يعفو عنه؛ ليعظم الله ثوابه))[١١٧]، نلاحظ أنَّ الإمام عليه السلام بعدما قرر الحكم الواجب على الجاني طلب عليه السلام من صاحب الحق أن يعفو عنه طلبا لما عند الله من الفضل والجزاء، أي أن يمنح الجاني فرصة جديدة للحياة؛ ليحيه بعدما استحق الموت بجنايته، هكذا يسعى الإمام إلى إشاعة الرأفة والتسامح في الحقوق عندما يكون صاحب الحق ظاهرا ومتمكنا من أخذ حقه.

ويرسخ الإمام عليه السلام مبدأ التسامح بين أصحابه فيقول لهم: ((إذا أخذت أسيرا فعجز عن المشي ولم يكن معك محمل فأرسله ولا تقتله))[١١٨]، وبهذا تكون الرأفة مبدأ واجب التطبيق حتى مع العدو، فما أن يقع بيدك حتى تصبح له حقوق يجب مراعاتها، ولا يحق لك أن تتجاوز عليه، ويأمرنا الإمام عليه السلام أن نعفو عنه نرسله إذا سنحت الفرصة لذلك، فليست غاية الإسلام قتل الناس أو أخذهم أسرى، بلغايته تربيتهم وإحياؤهم بعد أن كانوا أمواتا مشركين أو كافرين.

لا يقف الإمام عليه السلام عند هذا الحد، بل يعلم أتباعه إشاعة الرأفة في المجتمع بمافيه من موجودات وإن كانت غير الإنسان، فطلب إليهم أن لا يذبحوا البهائم في الليل فكان يقول: (لا تذبحوا حتى يطلع الفجر؛ فان الله عز وجل جعل الليل سكنا لكل شيء)[١١٩]، فلما كان الليل سكنا وهدوءا لا يرضى الإمام عليه السلام أن تفزع فيه الحيوانات، وتتعرض للذبح، بل ينتظر فيها إلى الصباح، يربي الإمام عليه السلام أصحابه على احترام نواميس الطبيعة الكونية

كما خلقها الله وشاء لها أن تكون فلا يتعدوا عليها، ونهى الإمام السجاد عليه السلام عن أن تروع فراخ الطير في أعشاشها، فقد سأله أحد أصحابه عن العصفور يفرخ في الدار، هل تؤخذ فراخه؟ فقال عليه السلام: (لا، إنَّ الفرخ في وكرها في ذمة الله ما لم يطر، ولو أن رجلا رمى صيدا في وكره فأصاب الطير والفراخ جميعا فإنه يأكل الطير، ولا يأكل الفراخ؛ وذلك أنَّ الفراخ ليس بصيد ما لم يطر، وإنما تؤخذ باليد وإنما يكون صيد إذا طار)[١٢٠]، فالرأفة في مفهوم الإسلام لا تختص بالبشر فحسب بل تشمل الموجودات معه، فبحكم كونه خليفة لله في أرضه له ولاية على هذه الموجودات وعليه أن يحسن التصرف فيها والتعامل معها.

التكافل والضمان الاجتماعي

التكافل بين أفراد المجتمع ضرورة لازمة فبها يضمن المجتمع سلامة أفراده ويضمن أن كل فرد من أفراده سيكون نقطة تنير سماءه، وتعالج آلامه، فالجياع في المجتمع يجب إشباعهم، وقد تقع هذه المسؤولية على أفراد المجتمع في بعض الأحيان وذلك عندما يعلم الفرد أن فردا من الأفراد بعينه جائع فعليه أن يطعمه، وكان علي بن الحسين عليه السلام يقول: ((من بات شبعانا، وبحضرته مؤمن جائع طاو، قال الله عز وجل: ملائكتي أشهدكم عل هذا العبد أنى قد أمرته فعصاني، وأطاع غيري ،ووكلته إلى عمله، وعزتي وجلالي لا غفرت له أبدا))[١٢١]، فلا يجوز في بلاد المسلمين أن يجوع فرد وأنت تعلم به، ليست هذه من قيم هذا المجتمع المؤمن، وكان عليه السلام يقول لمولى له: ((لا يعبر عل بابي سائل إلا أطعمتموه فإن اليوم يوم الجمعة، قلت: ليس كل من يسأل مستحقا، فقال: يا ثابت أخاف أن يكون بعض من يسألنا محقا فلا نطعمه ونرده فينزل بنا أهل البيت ما نزل بيعقوب وآله، أطعموهم))[١٢٢]، خلاصة الأمر أن الفرد لا يجوز أن يبقى جائعا في ديار المسلمين ويجب عليهم إطعامه.

ويعلم الإمام عليه السلام أتباعه أن يخلفوا الحاج في أهله فيقول: ((من خلف حاجا في أهله وماله كان كأجره حتى كأنه يستلم الحجار))[١٢٣] هذا المبدأ يعلمنا أن رعاية الأسر المسلمة مضمونة في ديار المسلمين وبذا يكون الفرد مطمأنا على عياله إذا سافر لأنه يشعر أن

المجتمع يرعاهم بغيابه، وهذا من مبادئ التكافل الاجتماعي التي حث عليها ديننا الحنيف وأوصى بها أئمتنا الأطهار.

العمل وتنمية الثروة العامة

الأموال في الإسلام ليست للخزن بل هي للعمل، وباستثمار الأموال ستدور عجلة الحياة ويشتغل كثير من الأفراد ويحصلون على رزقهم بطريق صحيح، فالبطالة الناتجة عن تخزين الأموال وجمعها سبب رئيس لكثير من آفات المجتمع وهي التي تدفع ببعض الأفراد إلى التجاوز على حقوق الآخرين أو مد أيديم إلى المال الحرام ،لذا كان إمامنا زين العابدين عليه السلام يدعو أصحابه إلى تشغيل الأموال ويعدُّ ذلك من تمام المروءة إذ يقول: ((استنماء المال تمام المروءة))[١٢٤]، ويقول عليه السلام أيضا: ((استثمار المال تمام المروة))[١٢٥]، فاستنماء المال أي تشغيله طلبا لنمائه، واستثماره تشغيله طلبالثمرته، وثمرة المال إدارة عجلة الحياة والتوسعة على العيال والنفس، وهذا المبدأ لاشكَّ أنه يحيي المجتمع، وكان الإمام عليه السلام يحث على العمل ويقول: ((إن من سعادة المرء أن يكون متجره في بلاده))[١٢٦].

كل هذه العوامل التي حثَّ عليها الإمام عليه السلام كانت عناصر لإحياء المجتمع وهو عوامل ايجابية تعزيزها يعود على المجتمع بالحياة الصالحة؛ لذا كانت دعوة إمامنا بالقول والعمل لترسيخ هذه المقومات الاجتماعية.

الجانب الثاني: محاربة العوامل السلبية المقوضة للمجتمع والحد منها، ويتحقق هذا من خلال محاربة مجموعة من الظواهر السلبية في المجتمع منها:

الفقر والعوز

الفقر والعوز من أخطر الأشياء التي تقوض استقرار أي مجتمع فإذا حلَّ الفقرُ بديار قوم لم تبق لهم حرمة إلا وتنتهك، فالجائع قد يفعل كل شيء ليسد وجوعه ،وفي الأخص إذا كان معيلا لأطفال، لذا سعى الإمام عليه السلام بكل طاقته لمحاربة الجوع والفقر في مجتمعه، وكان الإمام السجاد عليه السلام يشعر بفداحة هذا الخطب، وأنَّ مسوؤلية الإمام عليه السلام تتعلق بمحاربته بما

يمكنه، وإذا أردنا أن نتتبع أخبار الإمام زين العابدين عليه السلام في هذا الجانب، فإن المقام يضيق بنا؛لذا سنذكر بعض الروايات للتمثيل، وأخبارُه عليه السلام في تصدقه وإطعامه الجياع أشهر من أن تخفى، فعن أبي حمزة الثمالي قال: «وكان علي بن الحسين عليه السلام ليخرج في الليلة الظلماء، فيحمل الجراب فيه الصرر من الدنانير والدراهم، حتى يأتي بابا بابا فيقرعه، ثم يناول من يخرج إليه، فلما مات علي بن الحسين عليه السلام، فقدوا ذلك فعلموا أن علي بن الحسين عليه السلام، الذي كان يفعل ذلك»[١٢٧]، كان الإمام عليه السلام حريصا على إعالة العوائل الفقيرة فيالمدينة، ويسعى بنفسه لأداء تلك المهمة، ويحدثنا الإمام الصادق عليه السلام عن جده زين العابدين عليه السلام، إذ يقول: ((كان علي بن الحسين عليه السلام إذا كان اليوم الذي يصوم فيه أمر بشاة، فتذبح وتقطع أعضاؤه وتطبخ، فإذا كان عند المساء أكب عل القدور حتى يجد ريح المرق وهو صائم، ثم يقول: هاتوا القصاع، اغرفوا لآل فلان، اغرفوا لآل فلان، ثم يؤتى بخبز وتمر، فيكون ذلك عشاءه))[١٢٨].

يعطينا الإمام عليه السلام درسا علميا في الإيثار والصدقة فحال كونه صائما يطبخ الطعام، ويشم رائحته، فتشتهيه النفس، ولكن خلق الإمام عليه السلام يأبى أنْ يأكل منه شيئا وفي المدينة جياع وفقراء فيوزع الطعام عن آخره بينهم، ويفطر من صيامه بالخبز والتمر ليواسي الفقراء في فقرهم، ويستشعر جوعهم ومعاناتهم، لم يطبخ الإمام عليه السلام الشاة لنفسه وعياله بل كان يطبخها للفقراء من حوله، وكان يقول:

((من أطعم مؤمنا من جوع أطعمه ال من ثمار الجنة، ومن سقى مؤمنا من ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم، ومن كسا مؤمنا كساه الله من الثياب الخضر))[١٢٩]، فغاية الإمام عليه السلام كانت إطعام الجياع وتحفيز المتمكنين من حوله ليتابعوه في العمل الصالح، فينفقوا مما رزقهم الله على الفقراء والجياع، هذه آداب الإمام عليه السلام وتربيته لأصحابه، وكان زين العابدين عليه السلام «يشتري كساء الخز بخمسين دينارا، فإذا صاف تصدق به»[١٣٠]، ولا يبالي أن يتصدق الإمام عليه السلام بالثوب وإن غلا ثمنه ولا يتركه في خزانة للسنة القادمة؛ لأن الإمام عليه السلام ليس بطويل الأمل في هذه الدنيا، لا يخزن من حطامها شيئا، وقد توكل على الله وهو على يقين

بأن الله تعالى كافيه حاجته فلم يخزن ثيابا أو أموالا؟ يجود بما يقع تحت يده لينقذ الفقراء والجياع، ومرت علينا آنفا بعض أخبار الإمام عليه السلام، وأنه كان يُعدُّ الطعامَ للفقراء، ويُشرِفُ على إطعامهم بنفسه، لقد تصدى الإمام عليه السلام لظاهرة الفقر والجوع في أيامه بما يشكل حلا سليما لهذه الآفة الاجتماعية، ودعا أصحابه إلى التصدق في السر والعلن، بما يتمكن كل منهم وكان يقول عليه السلام لهم: ((ما من رجل تصدق عل مسكين مستضعف فدعا له المسكين بشئ تلك الساعة إلا استجيب له))[١٣١]، ليحبب الصدقة إلى نفوس الناس، وكان عليه السلام يقول لهم أيضا: ((صدقة السر تطفئ غضب الرب))[١٣٢].

إن اهتمام الإمام عليه السلام بالتصدق والإطعام كان واضحا وشكل سمة من سمات شخصيته المباركة، وذلك إحياء للمجتمع وحفاظا على قيمه التي تدهورت بسبب تفشي الفقر والتمايز الطبقي فالأموال استحوذ عليها نفر من الناس ظلما وعدوانا وبغير استحقاق، وبقي عامَّة الشعب يعاني من النقص والجوع، ما استوجب حلا مناسبا من إمام الأمة، وقد فعل ما أمكنه، وأنقذ كثيرا من الأسر التي كان الإمام عليه السلام يعيلها بنفسه، وأحيى بذلك العمل الدؤوب المجتمع.

التمييز العنصري والطبقية

ذكرنا في التمهيد أن من سمات المجتمع الأموي الذي عاصره الإمام زين العابدين عليه السلام وجود التمايز العنصري والطبقي، فقد أعاد بنو أميَّة النعرات الجاهلية وأحيوا العصبية القبلية بشكلها المضر بالمجتمع بعد أن أماتها الإسلام، فكان على الإمام عليه السلام أن يحيي قيم الإسلام ويميت العصبية المضرَّة بالمجتمع والمهددة لقوامه، فنراه عليه السلام يقول: ((لا حسب لقرشي ولا عربي إلا بتواضع، ولا كرم إلا بتقوى))[١٣٣]، وليس كل عصبية محرمة أو مذمومة، وقد سُئلَ علي بن الحسين عليه السلام عن العصبية، فقال: ((العصبية التي يأثم عليها صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه خيرا من خيار قوم آخرين، وليس من العصبية أن يحب الرجل قومه، ولكن من العصبية أن يعين الرجل قومه عل الظلم))[١٣٤]، وخشية أن

يفهم كلام الإمام عليه السلام على غير وجهه الصحيح بيَّن لنا الإمام عليه السلام معنى العصبية المذمومة التي يأثم عليهاصاحبها وهي تلك النوع من الرابطة التي تدفع صاحبها إلى نصرة الأشرار على الأخيار؛ بسبب رابطة الدم والرحم، أما أن يحب الرجل قومه وعشيرته وينصرهم على الحق ويساعدهم على فعل الخير فتلك صلة للرحم محبذة ومحمودة، أما التجاوز على الآخرين وظلمهم حقوقهم من أجل صلة القرابة للعشيرة أو القبيلة أو العرق ،فهذه هي العصبية التي حاربها الإسلام وذمها الإمام عليه السلام وقال إن صاحبها يأثم عليها، لأنها تقوض أساسا من أسس المجتمع المتينة، فالمجتمع يجب أن يبنى على المواطنة الصالحة وليس على العصبية الظالمة، فحياة المجتمع تقوم على العدل لا الظلم .

الغيبة والنميمة والبهتان

من الآفات الخطيرة التي تصيب بعض المجتمعات الغيبة والنميمة والنفاق الاجتماعي، وتهدد هذه الأمراض وحدة المجتمع وتعمل على نخر وحدات المجتمع المكونة له (الأسر) فقد تفت هذه الأمراض الاجتماعية كثيرا من الأسر وتميتها؛ ما يجعل كيان المجتمع كله مهددا بالانهيار؛ لذا كان الإمام عليه السلام يسعي إلى بيان خطر هذه الأمراض ومحاربتها بما يستطيع ويوصي أصحابه بعدم اقترافها، ويحذرهم من خطرها، فكان عليه السلام يقول لهم: ((إن الملائكة إذا سمعوا المؤمن يذكر أخاه بسوء ويدعو عليه قالوا له: بئس الخ أنت لخيك، كف أيا المستر عل ذنوبه وعورته ،وأربع على نفسك، واحمد الله الذي ستر عليك، اعلم أن الله عز وجل أعلم بعبده منك))[١٣٥]، فيذكر أصحابه أن الله يعلم عيوب العباد وأن للمتكلم عيوبا قد سترها الله تعالى عليه وأن حريّ به أن ينشغل بعيوبه عن ذكر عيوب الآخرين، وكان يقول: ((من رمى الناس بما فيهم رموه بما ليس فيه))[١٣٦]، ويقول عليه السلام: ((من كف عن أعراض المسلمين أقاله ال عز وجل عثرته يوم القيامة))[١٣٧].

لا ينفك الإمام عليه السلام يذكر أن الغيبة والنميمة والبهتان وذكر عيوب الناس انشغال بأمور لا تليق بمروءة الرجل ولا تناسب كرامته وإن من لا ينتهي عن ذكر عيوب الناس فإنه

يفتح على نفسه بابا واسعا فيذكره الناس بما لا يحب من العيوب وإن كانت ليست فيه، وكأن هذه المعادلة التي يذكرها الإمام عليه السلام لنا تمثل عقوبة عاجلة لمن لا يتورع عن ذكر عيوب الناس فسرعان ما يرموه بتهم باطلة لا يحب أنْ تنسب له، وبعد ذلك فإن الله له بالمرصاد، فعقوبته يوم القيامة شديدة، يقول الإمام السجاد عليه السلام: ((إياكم والغيبة، فإنها إدام كلاب النار))[١٣٨]، هذا التحذير الشديد من الإمام عليه السلام يشعر به أصحابه بأن عقوبة الغيبة في الآخرة بشعة جدا والعاقل لا يليق به أن يقترف مثل هذا الفعل، وإلحاح الإمام عليه السلام على التحذير من هذه الصفات لعلمه اليقين أنها من الأخطار الشديدة التي تؤدي إلى موت المجتمع وأنها قيمة سلبية يجب التصدي لها بقوة، ولم يكن الإمام عليه السلام يسمح لأحد أن يذكر الآخرين بسوء في مجلسه أو أن ينقل له كلاما عنهم، فتذكر الأخبار أنَّ رجلا قال للإمام عليه السلام: إن فلانا ينسبك إلى أنك ضال مبتدع، فقال له علي بن الحسين عليه السلام:

((ما رعيت حق مجالسة الرجل، حيث نقلت إلينا حديثه، ولا أديت حقي حيث أبلغتني عن أخي ما لست أعلمه!... إياك والغيبة، فإنها إدام كلاب النار، واعلم أن من أكثر من ذكر عيوب الناس شهد عليه الإكثار أنه إنما يطلبها بقدر ما فيه))[١٣٩]، فلم يسمح الإمام عليه السلام لأحد جلسائه أن ينقل له كلاما عن شخص آخر وإن كان صادقا في نقله عنه، ونهاه نهيا شديدا عن هذا الفعل، ليؤدبه ويمنعه من تكرار مثل هذا الفعل لأنه ليس من المروءة ويميت القلب ويفتت المجتمع.

وكان الإمام عليه السلام قد ذكر في رسالة الحقوق أن: ((حق اللسان إكرامه عن الخنا، وتعويده الخير وترك الفضول التي لا فائدة لها، والبر بالناس، وحسن القول فيهم، وحق السمع تنزيه عن سماع الغيبة، وسماع ما لا يل سماعه))[١٤٠]، فحاسة النطق التي وهبها الله تعالى لنا يجب أن نصونها عن ذكر عيوب الناس وأن نقول فيهم القول الحسن مثلما يجب أن نصون حاسة السمع ونمنعها عن سماع الأباطيل والبهتان وقول الزور .

الفحش والفحشاء والمنكر في القول والعمل

ولقد شاعت الفحشاء في مجتمع بني أميَّة وذكرنا آنفا تفشي الغناء والرقص وشرب الخمر وشاع المنكر في ظل فسق الحكام والأمراء ومجونهم، دون أدنى ريب إن مثل هذه الأعمال تهدد المجتمع في الصميم، وتميت مقومات وجوده، فنهض الإمام عليه السلام للتصدي لتلك الأعمال، بالقول والعمل عمليا تصدى لها بتعليم أصحابه كثرة العبادة والدعاء والمناجاة وكانت هذه الأعمال تهذب النفس وتؤثر في مستوى الفرد فتحصنه من الانزلاق في مهاوي الرذيلة، أما على المستوى الاجتماعي العام فكان كثير النصح والإرشاد لعامة الناس فنراه عليه السلام يحذرهم قائلا: ((والذنوب التي تهتك العصم: شرب الخمر واللعب بالقمار وتعاطي ما يضحك الناس من اللغو والمزاح وذكر عيوب الناس ومجالسة أهل الريب))[١٤١].

فشرب الخمر يخرج العبد من عصمة مولاه فيتركه الله تعالى لعمله وقد خسر من يخرج من ساحة رحمة الله ويعتصم بعمله، وكان إمامنا علي بن الحسين عليه السلام يقول:

((إن لسان ابن آدم يشرف كل يوم عل جوارحه كل صباح فيقول: كيف أصبحتم؟ فيقولون بخير إنْ تركتنا، ويقولون: الله الله فينا، ويناشدونه ويقولون: إنما نثاب ونعاقب بك))[١٤٢]، هذه الحوارية الجميلة بين اللسان والجوارح تبين هيمنة اللسان على بقيَّة الجوارح فقد يعثر اللسان، وتتحمل بقية الجوارح التبعات والعقوبات؛ لذا كان إمامنا علي بن الحسين عليه السلام يوصي ولده وأصحابه ومن بلغهم قوله قائلا:

((اتقوا الكذب الصغير منه والكبير في كل جد وهزل، فإن الرجل إذا كذب في الصغير اجترأ عل الكبير أما علمتم أن رسول ال صلى الله عليه وآله وسلم قال: ما يزال العبد يصدق حتى يكتبه ال صديقا، وما يزال العبد يكذب حتى يكتبه ال كذابا))[١٤٣]، فالكذب من الفحشاء التي نهى الإسلام عن اقترافه؛ لأنه مرض يضيع الحق في المجتمع وتتيه معه الحدود فيتجاوز ضعاف النفوس عليها، نتيجة الكذب وقول الزور.

وكان الإمام عليه السلام قد حذر من الذنوب التي تديل الأعداء وهي: المجاهرة بالظلم، وإعلان

الفجور وإباحة المحظور وعصيان الأخيار والانصياع للأشرار ،وحذر أيضا من الذنوب التي تعجل الفناء وهي: قطيعة الرحم واليمين الفاجرة ،والأقوال الكاذبة، والزنا وسد طريق المسلمين، وادعاء الإمامة بغير حق[١٤٤]، هذه الأعمال كلها من الفحشاء والباطل التي نهى الإسلام عن اقترافها لأنها تضر بصحة المجتمع، وتميت القيم الإيجابية فيه ن لذا يحذر منها الإمام بشدة.

وكان الإمام عليه السلام قد قرر في رسالة الحقوق حق بعض الأعضاء قائلا: ((وحق اللسان إكرامه عن الخنا وتعويده الخير وترك الفضول التي لا فائدة لها، والبر بالناس ،وحسن القول فيهم، وحق فرجك عليك ان تصنه من الزنا، وتفظه من أن ينظر إليه))[١٤٥]، فاللسان والفرج من الأعضاء التي قد يكون لهما اثر في الحفاظ على حشمة المجتمع وصيانته من الرذيلة من خلال حفظ اللسان من الفحش في القول وحفظ الفرج من الزنا وصيانته عما لا يجوز من الأفعال، وبذا يحاول الإمام عليه السلام صيانة المجتمع من الانحلال الخلقي ويعالج بهذه الوصايا بعض الأمراض التي انتشرت في عصر بني أميّة. وكان عليه السلام يقول: ((أربع من كن فيه كمل إسلامه، ومصت عنه ذنوبه، ولقي ربه عز وجل وهو عنه راض: من وفى لله عز وجل بما يجعل عل نفسه للناس، وصدق لسانه مع الناس، واستحيا من كل قبيح عند الله وعند الناس ،وحسن خلقه مع أهله))[١٤٦]، هذه قاعدة عامة من تمام إسلام المرء أنَّه يستحيي من كل قبيح شرعا وعرفا، ثم لا يكون كاذبا، ولا فاحش القول، ولا خوانا، وإن هذه الصفات إن توافرت في العبد ستعينه على تكوين أسرة صالحة ويكون عضوا إيجابيا في المجتمع يساعد في إحياء الفضيلة ونشرها بين الناس.

تحريم الربا والمنافع الباطلة

أحل الله البيع وحرم الربا ولقد كان الربا من الممارسات التي قوضت أسس المجتمع الجاهلي في مكة وأرهقت كاهل كثير من أفراده وسلبتهم كل ما يملكون وحولته إلى ثروات باطلة تنمو بصورة غير شرعية عند فئة من المنتفعين والمتسلطين ،ولقد حارب الإسلام الربا، وأسقط كل ربا من أيام الجاهلية، ولكن لشيوع الفقر وازدهار طبقة من الأغنياء المقربين من السلطة وقلَّة الوازع الديني أيام نبي أُمية يبدو أنَّ هذه الآفة قد عادت إلى المجتمع وكان على الإمام زين العابدين التصدي لها ولكل المنافع الباطلة التي تضر بكيان المجتمع الاقتصادي وتضر بعملية حركة الموال والثروات في المجتمع وتحولها من حركة نافعة إلى حركة احتكارية ضارة بل محطمة لكيان المجتمع، فنراه عليه السلام يقول: ((الحلال هو قوت المصطفين، ثم قال:

قل: اللهم إني أسألك من رزقك الواسع))[١٤٧]، فيعلم أصحابه ومن يبلغه كلامه الشريف أن ألأصل في الإنسان أن يجمع قوته وقوت عياله من الحلال وأن الذين اصطفاهم الله تعالى كانوا يأكلون من الحلال ولم يداخل قوتهم الحرام ثم يعلمهم أن يطلبوا من الله الرزق الحلال، وكان الإمام زين العابدين عليه السلام قد قال في رسالة الحقوق: ((وحق يديك أن لا تبسطهما إلى ما لا يل لك وحق بطنك أن لا تجعله وعاء للحرام وأما حق مالك فأن لا تأخذه إلاَّ من حله ولا تنفقه إلا في وجهه ولا تؤثر عل نفسك من لا يمدك فاعمل به بطاعة ربك ولا تبخل به فتبوء بالحسرة والندامة مع التبعة))[١٤٨]، فيقرر لنا أمامنا عليه السلام أن نعمة سلامة اليد التي أنعم الله بها عليك يجب أن يكون شكرها أنْ لا تمدها إلى حرام، وحق بطنك أن لا تدخل فيه مالا حراما، وأنَّ مالك يجب أن يكون من المكاسب المحللة شرعا وان لا يكون حراما من ربا او سرقة أو غيرهما من الطرق غير الشرعية لجمع الثروة وأن هذه الثروة التي تتحصل عندك مصيرها إلى غيرك فانفق منها في ما يرضي الله قبل أن تجوزك إلى غيرك فتخرج من يدك وتبقى تبعتها عليك.

هكذا يربي الإمام عليه السلام أفراد مجتمعه، وكان ينهاهم عن صغائر الأمور إذا كانت تعتريا شبهة فساد، فيذكر لناالإمام الباقر عليه السلام: ((أنَّ الإمام زين العابدين عليه السلام كان ينهى عن الجوز الذي يجئ به الصبيان من القمار أن يؤكل، وقال: هو السحت))[١٤٩]، فهذا المقدار القليل الذي قد لا يتم لشأنه بعض الناس كان الإمام عليه السلام لا يرتضيه وينهى عن أكله معتبرا إياه مالا لم يؤخذ من عمل أو كسب صحيح، فالأموال لها طرقها الصحيحة التي يجب أن تتحرك فيها في المجتمع لتدوم وتنمو بطرقها الصحيحة محققة فوائدها، أما الحصول على الأموال من طرق غير مجازة في الشرع فهذا ما كان ينهى عنه الإمام عليه السلام؛ لأنه من أسباب موت المجتمعات والقضاء عليها؛ لذا وجب محاربة المكاسب المحرمة من أجل إحياء المجتمع والحفاظ على سلامته.

الخاتمة والنتائج

كانت هذه الجولة في سيرة الإمام علي بن الحسين عليه السلام والتفحص لأخباره ووصاياه وآثاره محاولة لاستكشاف فلسفته الإحيائية على مستوى الفرد والمجتمع ولقد تبين لنا الآتي:

١.أن الإمام علي بن الحسين عليه السلام كان يصدر عن فلسفة إحيائية واضحة هي نفسها التي دعا إليها نبينا الأكرم وأمرنا الله تعالى بالاستجابة لها؛ لأن فيها حياتنا.

٢.كانت هذه السياسة تعتمد على محاور خاصة لإحياء الفرد حياته المادية، وقد وجدنا الإمام عليه السلام يحث على انتاج الأولاد من الطرق الصحيحة من خلال الزواج الشرعي والابتعاد عن العلاقات غير الشرعية بين الذكر والأنثى لأنها قد تكون سببا في انتاج أفراد غير شرعيين في المجتمع ومن ثم يكون هذا وبالا عليه. هذا من جهة ومن جهة ثانية فقد عمل الإمام عليه السلام على انتهاج سياسة خاصة لتحرير العبيد وإعادة إحيائهم بعد أن فقدوا حريتهم وقد كانت ظاهرة عتقه للعبيد علاجا ناجحا لتفشي ظاهرة العبودية في العصر الأموي، فكان الإمام عليه السلام يحتضن العبيد ويعلمهم ويغمرهم بعطفه ورعايته قبل أن يزجهم من جديد في المجتمع وبعد أن يوفر لهم مستلزمات نجاحهم في الحياة، فكانت هذه سياسته الإحيائية للعبيد.

٣.أما حياة الفرد المعنوية فقد اهتم بها الإمام وعمل عليه السلام على إحيائها وذلك تقوية الإيمان بالله تعالى وإشاعة مفهوم الرحمة في النفوس ثم مفهوم الحلم لتحيا بها نفوس الأفراد وتزدهر قيم الخير عندهم.

٤.بعد ذلك كانت فلسفة الإمام عليه السلام في إحياء المجتمع تعتمد على جانبين مهمين الأول تعزيز الظواهر الإيجابية في المجتمع مثل تكوين الأسرة الصالحة ،وإشاعة المودة والإخاء في المجتمع، وإشاعة السماحة والتسامح والرافة بين أفراد المجتمع، ثم تعزيز مفهوم التكافل الاجتماعي، ودعم استثمار المال بالشكل الصحيح وتنمية الوضع الاقتصادي في المجتمع،

أما الجانب الثاني فيتمثل في محاربة الظواهر السلبية المقوضة لسلامة المجتمع والمهدد لكيانه مثل: محاربة الفقر والعوز والجوع في المجتمع، والتصدي لظاهرة التمييز العنصري والعصبية القبلية، محاربة ظاهرة الغيبة والنميمة والبهتان، عدم السماح لانتشار الفحش والفحشاء في القول والعمل، وتحريم المنافع الباطلة وأولها الربا والمكاسب غير الشرعية. وبهذا تمكن الإمام زين العابدين عليه السلام من إعادة إحياء المجتمع والتصدي للانهيار الخطير الذي كان يتربص به.

المصادر

١. الأنفال: ٢٤.
٢. الأنعام: ١٢٢.
٣. الزمر: ٩.
٤. ينظر: لسان العرب: ابن منظور، نشر أدب الحوزة قم، إيران ١٤٠٥هـ، مادة (حيا) ١٤/ ٢١٢ -٢١١.
٥. فاطر: ٢٢.
٦. النحل: ٢١.
٧. يس: ٧٠.
٨. ينظر لسان العرب ٢١٢-٢١١/ ١٤.
٩. موسوعة المورد: مادة (Life).
١٠. ينظر المصدر السابق نفسه.
١١. الصحاح في اللغة والعلوم: مادة (حيي).
١٢. ينظر: خلاصة علم الكلام: عبد الهادي الفضلي: ٩٥.
١٣. الفرقان: ٥٨.
١٤. الميزان في تفسير القرآن: السيد الطباطبائي، مؤسسةالنشرالإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، د.ت: ٣٣٠/ ٢
١٥. ينظر: الإمام السجاد عليه السلام جهاد وأمجاد: حسين الحاج حسن، دار المرتضى بيروت: ٩- ١٥.
١٦. الإمام الحسين عليه السلام: عبد الله العلايلي: ٢٣٩.
١٧. شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية ،٤٥/ ١١: ١٩٦١، وينظر معه بحار الأنوار: المجلسي، دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان: ١٨١/ ٣٣.
١٨. المصدرين السابقين.
١٩. ينظر: الإمام السجاد عليه السلام جهاد وأمجاد: ١١.
٢٠. ينظر: الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان: ١٥ / ٧٥.
٢١. الحجرات: ١٣.
٢٢. شرح نهج البلاغة ١٢٨/ ١، بحار الأنوار: ٣٥٠/ ٧٣.
٢٣. العقد الفريد: ابن عبد ربه الأندلسي: ٢٦٠/ ٢، وينظر معه: حياة الإمام الحسين عليه السلام: باقر شريف القرشي، مطبعة الآداب النجف ط١، ١٩٧٥: ١٣٥/ ٢.
٢٤. الإمام السجاد عليه السلام جهاد وأمجاد: ١٣.
٢٥. المصدر السابق: ١٥.

٢٦.الأغاني: ٢٥٧\٢١.
٢٧.ينظر: بحار الأنوار: ٣٢٥/ ٤٤، وحياة الإمام الحسين عليه السلام: ١٢٠/ ١.
٢٨.ينظر: الإمام السجاد عليه السلام جهاد وأمجاد: ٢٣.
٢٩.ينظر: الأغاني: ٣١٠\١١، ٢٦٢\١٩، ٨٩\١٧.
٣٠.ينظر: الأغاني: ١٧٢\١٩.
٣١.ينظر: الأغاني: ٤٢٢/ ٨، ديوان الأخطل: ١٦٣، معاهد التنصيص: عبد الرحيم العباسي .٢٧٦-١/٢٧٢
٣٢.ينظر: الأغاني: ١/ ٥٥، ٤/ ٠٢، ٠٠٤، ١١١/ ٥.
٣٣.ينظر: بحار الأنوار: ٣١/ ٣٥١، ١٥٩.
٣٤.الأغاني: ٢٤٤/ ٨.
٣٥.العقد الفريد: ٢٣٣/ ٣.
٣٦.ينظر: الأغاني: ٢٢٧/ ٨، الشعر والغناء في المدينة ومكة: ٢٥٠.
٣٧.ينظر: الأغاني: ٣٤٣/ ٨.
٣٨.ينظر: المصدر نفسه:٣/ ٦٢٢، ٣٢٤/ ٨.
٣٩.ينظر: المصدر نفسه:٣٠٧/ ٣.
٤٠.الأنفال:٢٤.
٤١.النحل: ٧٢.
٤٢.وسائل الشيعة:الحر العاملي، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، ط٢، ١٤١٤هـ، مهر، قم المشرفة: ٢٠/ ١٤.
٤٣.الكافي: الكليني، تحقيق علي أكبر غفاري، ط٣، ١٣٦٧هـ ش، درا الكتب الإسلامية طهران: ٢٥٨/ ٥، وسائل الشيعة:٣٥٦/ ٢١.
٤٤.الكافي: ٢٥٨/ ٥.
٤٥.كنز العمال: المتقي الهندي، تحقيق: بكري حياتي، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٧٩ بيروت: ٢٩٦/ ١٦
٤٦.نوح: ١٢-١٠.
٤٧.وسائل الشيعة:٣٧٠-٣٦٩/ ٢١.
٤٨.المصدر السابق:٢١/ ٨١.
٤٩.ينظر: جهاد الإمام السجاد عليه السلام: محمد رضا الجلالي، مؤسسة دار الحديث، ط١، ١٤١٨هـ: .١٤٤-١٤٣
٥٠.ينظر: المعلى بن خنيس:حسين الساعدي ط١، ١٤٢٥هـ، دارالحديث للطباعة والنشر ،لبنان:

بيروت: ٢٦

٥١.ينظر: شرح نهج البلاغة: ٢٧٧/ ١٥، جهاد الإمام السجاد١٤٤عليه السلام:.

٥٢.وسائل الشيعة:٣١٨-٣١٧/ ١٠.

٥٣.شرح الأخبار القاضي القاضي النعمان المغربي، تحقيق: السيد محمد الحسيني الجلالي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة: ٢٦٠/ ٣.

٥٤.الجاثية: ١٤.

٥٥.بحار الأنوار:١٠٠/ ٤٦.

٥٦.بحار الأنوار:١٤٢/ ٧٩.

٥٧.وسائل الشيعة: ٤٠١/ ٢٢.

٥٨.ينظر: مسند أحمد:أحمد بن حنبل، دار صادر بيروت: ٤٢٠/ ٢، صحيح البخاري: البخاري، دار الفكر، بيروت١٨٨/ ٣ :١٩٨١، صحيح مسلم: مسلم النيسابوري، دار الفكر، بيروت لبنان:١٥٢/ ١٠، سنن الترمذي: الترمذي، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، ط٢، ١٩٨٣، دار الفكر، بيروت، لبنان: ١١٤/ ٤، السنن الكبرى: البيهقي، دار الفكر: ٢٧٣/ ٦.

٥٩.ينظر: تفسير القرآن العظيم:ابن كثير، دار المعرفة، بيروت، لبنان ،٥٤٨/ ٤ :١٩٩٢.

٦٠.ينظر: جهاد الإمام السجاد١٤٦عليه السلام:.

٦١.ينظر: المصدر السابق.

٦٢.ينظر: وسائل الشيعة:٣١٨-٣١٧/ ١٠.

٦٣.ينظر: جهاد الإمام السجاد: ١٤٦-١٤٥.

٦٤.آل عمران: ٦٤.

٦٥.البقرة: ٦٢.

٦٦.الأنعام: ١٢٢.

٦٧.التبيان في تفسير القرآن: الشيخ الطوسي، تحقيق:أحمد حبيب قصير العاملي، ط١، ١٤٠٩هـ، مكتب الإعلام الإسلامي: ٢٥٩/ ٤.

٦٨.النحل: ٢٠ – ٢١.

٦٩.الأنفال:٢٤.

٧٠.ينظر: الميزان في تفسير القرآن: السيد محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم المشرفة: ١٢١/ ٢.

٧١.الصحيفة السجادية:الإمام علي بن الحسين عليه السلام، ط١، ١٤١٨هـ، دفتر نشر الهادي، قم ،إيران: ٢٨.

٧٢.الحديد: ٣.

٧٣.الصحيفة السجاديَّة: ٣٠.
٧٤.الصحيفة السجاديَّة:٣٤.
٧٥.الصحيفة السجاديَّة:٥٣-٥٢.
٧٦.الصحيفة السجاديَّة: مناجاة المريدين.
٧٧.بحار النوار: ٩٥/ ٨٣.
٧٨.ق: ١٦.
٧٩.البقرة: ١٨٦.
٨٠.تحف العقول عن آل الرسول: ابن شعبة الحراني، تصحيح وتعليق كعلي أكبر غفاري، ط٢، ١٤٠٤هـ، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة: ٢٥٦.
٨١.بحار الأنوار ٩٥/ ٨٧.
٨٢.ينظر: الإمام زين العابدين القائد الداعية الإنسان: د. محمد حسين الصغير، مؤسسة البلاغ ،ط١، ٢٠١٢م، بيروت١١٥.
٨٣.الإسراء: ١٣٣.
٨٤.الكهف: ٥٨.
٨٥.الأعراف: ١٥٦.
٨٦.الأنعام: ١٢.
٨٧.وسائل الشيعة: ٩/ ٣٩٨- ٣٩٧.
٨٨.وسائل الشيعة: ٩/ ٣٩٨- ٣٩٧.
٨٩.سيرة الأئمة الاثني عشر: هاشم معروف الحسني: مطابع بيروت الحديث ٢٠٠٩: ٢/ ١٥٠-١٤٩، وينظر مصادره.
٩٠.الخصال: الشيخ الصدوق: تصحيح: علي أكبر غفاري: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم٥٧٠ :هـ١٤٠٢.
٩١.الخصال: ٥٧٠.
٩٢.الخصال: ٥٧٠.
٩٣.وسائل الشيعة: ٤٨٤/ ١١.
٩٤.وسائل الشيعة: ١١/ ٥٤١.
٩٥.البقرة: ٢٣٥.
٩٦.التبيان في تفسير القرآن: ٢٣١/ ٢.
٩٧.الصحيفة السجاديَّة: ٢٤٠.

٩٨.وسائل الشيعة: ٢٦٦/ ١٥.
٩٩.وسائل الشيعة: ١٩٢/ ١٥.
١٠٠.ميزان الحكمة: محمد الريشهري، دار الحديث، ط١، ٦١٤١هـ: ١/ ٢٠٧.
١٠١.وسائل الشيعة: ١٥/ ١٧٥.
١٠٢.وسائل الشيعة: ١٥/ ١٧٥.
١٠٣.وسائل الشيعة: ١٥/ ١٧٥.
١٠٤.وسائل الشيعة: ١٧٦-١٧٥ / ١٥.
١٠٥.وسائل الشيعة: ١٧٥ -١٧٤/ ١٥.
١٠٦.وسائل الشيعة: ١٥/ ١٧٥.
١٠٧.وسائل الشيعة: ١٢/ ٥٥.
١٠٨.وسائل الشيعة: ٧/ ١١١.
١٠٩.وسائل الشيعة: ١٦/ ٣٤٢.
١١٠.وسائل الشيعة: ٣٩٨ -٣٩٧/ ٩.
١١١.نهج البلاغة: أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، جمع: الشريف الرضي، تحقيق: صبحي الصالح، ط١، ١٩٦٧، بيروت:٤٢١
١١٢.وسائل الشيعة: ١٦٧/ ١٦.
١١٣.وسائل الشيعة: ٢١٨/ ١٢.
١١٤.الحجر: ٨٥.
١١٥.وسائل الشيعة: ١٧١/ ١٢.
١١٦.وسائل الشيعة: ٢٩/ ٥٤.
١١٧.وسائل الشيعة: ١٥/ ٧٢.
١١٨.وسائل الشيعة: ٢٤/ ٤١.
١١٩.وسائل الشيعة: ٣٨٤/ ٢٣.
١٢٠.وسائل الشيعة: ٣٢٦/ ٢٤.
١٢١.وسائل الشيعة: ٤١٦/ ٩.
١٢٢.وسائل الشيعة: ٤٣٠/ ١١.
١٢٣.ميزان الحكمة: ٢٨٨١/ ٤.
١٢٤.ميزان الحكمة: ٢٩٨٤/ ٤.
١٢٥.وسائل الشيعة: ١٧٧/ ١٧.

١٢٦.وسائل الشيعة:٣٩٧/ ٩.
١٢٧.وسائل الشيعة: ١٤٠/ ١٠.
١٢٨.وسائل الشيعة: ٤٧٤/ ٩.
١٢٩.وسائل الشيعة: ٤/ ٣٦٧.
١٣٠.وسائل الشيعة: ٤٢٤/ ٩.
١٣١.وسائل الشيعة: ٣٩٦/ ٩.
١٣٢.وسائل الشيعة: ١/ ٤٧.
١٣٣.وسائل الشيعة: ٣٧٣\١٥.
١٣٤.وسائل الشيعة: ٧/ ١٢٣ -١٢٢.
١٣٥.ميزان الحكمة: ٣١٤/ ١.
١٣٦.ميزان الحكمة: ١٨٦٨/ ٣.
١٣٧.ميزان الحكمة: ٢٣٢٩/ ٣.
١٣٨.ميزان الحكمة: ٢٣٢٩/ ٣.
١٣٩.وسائل الشيعة: ١٧٣/ ١٥.
١٤٠.وسائل الشيعة: ٢٨٢/ ١٦.
١٤١.وسائل الشيعة: ١٨٩/ ١٢.
١٤٢.وسائل الشيعة: ٢٥٠/ ١٢.
١٤٣.وسائل الشيعة: ٢٨٢/ ١٦.
١٤٤.وسائل الشيعة: ١٧٣/ ١٥.
١٤٥.ميزان الحكمة: ١/ ١٩٦.
١٤٦.وسائل الشيعة: ١٢٣/ ٧.
١٤٧.وسائل الشيعة: ١٧٣/ ١٥.
١٤٨.ميزان الحكمة: ٢٦٢٨/ ٣.

في اسلوبية النص السجادي المناجيات وادعية الايام مثالا

م.د . ادريس طارق حسين

جامعة بابل

كلية التربية للعلوم الانسانية

قسم اللغة العربية

ملخص البحث

يشكل النصّ السّجّاديّ معْلَمًا ثريًا لاشتماله على منظومة قيمية تهذيبية وفنية تعدُّ علامة فارقة في ميدان النشاط الإنساني الواعي، فقد جاءت نصوص الإمام زين العابدين عليه السلام شاهدا على عبقرية منتجها في التفنّن في توظيف الأساليب اللغوية وإضفاء الفضيلة على الصيغ المعجمية بما يخلق منها قيما جمالية وفكرية تفرض حضورها على العقل والوجدان.

يسعى الباحث باعتماده (المناجيات وأدعية الأيام) ميدانا تطبيقيا النفاذ إلى أعماق النص السجادي للكشف عن دلالاته الخبيئة وصولا إلى الكيفية التي اعتمدها مبدعه في توظيف تلك الأساليب لتبئير ثيمة النص وتوزيع خيوطها الترابطية بوساطة مسارات موجّهَة لانتاج قيم جمالية ابداعية لها هويتها المائزة وحضورها المشهود. وقد أفاد الباحث من معطيات الدرس الأسلوبي بمستوياته الصوتية والتركيبية والدلالية للكشف عن مواضع الإثارة وشواهد الانزياح التي شكلت بمجملها أمارات الإبلاغ المثمر والشعرية الساحرة التي تحمل المتلقي على التأمل والمساءلة. فقد جاء النص السجادي مستوعبا للواقع المعيش، ومعبراً عن رؤية شمولية ناضجة فنُسِجَت مضامينه الفكرية والروحية بأساليب مرنة وطيّعة بما يخدم تلك الرؤية ويعضدها دلاليا وجماليا، فضلا عن قدرتها على توجيه الحراك الذهني للمتلقي وحمله على الدخول إلى دائرة الحدث التي سعى الإمام على جعلها أكثر انفتاحًا واعمامًا، فكان منجزه عليه السلام مُسْتَلْهَماً من مدينة العلم جدّه النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وأبوابها كرام المنهل. فجاء نصاً ابداعيا بأساليبَ شكّلت بمجملها فرادةً في الثراء المعرفي والروحي، وشاهدا نابضا بروح القرآن ومصداقا لسحر البيان.

المقدمة

يحاول الباحث في الدراسة الحالية التي اتّخذت من (المناجيات وأدعية الأيام) ميدانا تطبيقيا النفاذ إلى أعماق النص السجادي للكشف عن دلالاته الخبيئة، وصولا إلى الكيفية التي اعتمدها مبدعه في تحويل ما قرّ في الأذهان من القواعد اللغوية واستعمالاتها إلى علاقات على قدر كبير من الوعي لإنتاج قيم جماليةوأمارات أسلوبية يمكن أن توسم بميسم الفرادة والانعتاق.

إن إنعام النظر بآداب الدعاء يكشف لنا عن قيمه التهذيبية التي تتحقق بعض صورها من طريق (إعمام الدعاء) ذلك الإعمام الذي يدفع بالنفس الإنسانية إلى الانفلات من دائرة الذات الضيقة والذوبان في عالم الملكوت الإلهي الذي باستشعاره نهجر (أنانيتنا) وبمعايشته نلوذ بالحب للجميع.

معلوم أن من الأنبياء عليهم السلام مَن لم يسألوا أجرا على رسالتهم التي بعثوا بها وهم يبلغونها أقوامهم، غير أن النبي محمد صلى الله عليه وآله طلب بـ (أمر إلهي) أجر ذلك مودة أهل البيت عليهم السلام ﴿ذلكَ الَّذي يُبَشِّرُ اللهُ عِبادَهُ الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[1] ولعل في إحياء ذكرهم عليهم السلام صورة من صور المودة التي سألها بحقهم النبي صلى الله عليه وآله. ويتخذ إحياء الذكر أشكالا عدة، أحسب منها تلاوة آثارهم الأدبية ودراستها ونشرها واعتماد كلمة الحق فيها .

ويكشف لنا النص السجادي عن عبقرية منتجه وسلطته على الكلمة، ويقف مصداقا وشاهدَ تأييدٍآخر لقول سيد البلغاء والمتكلمين علي بن أبي طالب عليه السلام:

((وإنّها لمراةُ الكلام، وفينا تَنَشَّبَت عروقه، وعلينا تهَّدلَت غصونه))[2].

إن الفرق الرئيس بين النص الأدبي والنص غير الأدبي يكمن في الوظائف التي تؤديا بناه، فالنص الأدبي وإن اختلفت بناه فإنما هي تلتقي في الوظيفةالجمالية الفنية المتحصَّل عليها بمقتضى الإيحاءات الجديدة[3]. تلك الإيحاءات المقرونة بتعدد القراءات ،وتعدد

القراءات علامة إيحائية النص وفاعليته، وهما ما يمنحان النص صفة الخلود والتحدي لعاملي الزمان والمكان، لتمثّله رؤية شمولية روافدها منابع الخير والجمال .ومما يجدر التنبيه عليه هو أن ولادة النصوص السجادية لم تكن محض صدفة ،وإنما كانت عن وعي وإدراك عميقين لمهمةٍ استوعب الإمام عليه السلام أبعادها فتجسدت مقومات النهوض بشخصه الكريم، ودليل الاستيعاب واستحضار المقومات نجده في لجوء الإمام عليه السلام إلى البثِّ اللغوي المعبّر عن المقاومة الفكرية التي تطلبتها المرحلة بعد واقعة كربلاء .

وكان الملحظ السياسي عصيبا على الإمام، فقد حُددت مسؤوليته الريادية في مجابهة الأحداث وكان في رقابة منعته توجيه الحياة الإسلامية كما أراد الله تعالى ،فالإمام محاصر في ظل إرهاب دموي طائش يشتري الذمم ويستأجر الضمائر ويبيح المحرمات[٤]. علاوة على الأخطار المحدقة بالدولة الإسلامية التي أخذت بالتعاظم، فهناك خطر نجم عن انفتاح المسلمين على ثقافات متنوعة وأعراف تشريعية وأوضاع اجتماعية مختلفة بحكم تفاعلهم مع الشعوب التي دخلت في دين الله، يُزاد عليه ما نجم عن موجة الرخاء التي سادت في المجتمع الإسلامي في أعقاب ذلك الانفتاح آخذين بالحسبان خطر انسياق ذلك المجتمع بموجب الرخاء مع ملذات الدنيا والإسراف فيه، وانطفاء الشعور الملتهب بالقيم الخلقية والصلة الروحية بالله والسُّنّة. وعليه كان لابد من حركة فكرية اجتهادية تفتح آفاقهم الذهنية، وقد أحسّ الإمام زين العابدين عليه السلام بهذا الخطر وبدأ بعلاجه[٥] فلجأ إلى أساليب جديدة في الدعوة والدعاء والتزم حياة الصمت السياسي ظاهرا ودأب إلى الإصلاح الاجتماعي بمستجدات من التعبئة والإعداد لا عهد لحياة المسلمين بها من ذي قبل فابتكر من الظواهر الفكرية أبعادا مشرقة جديدة أدى بإزائها واجباته سليمة راسخة[٦]. «فتطلعات الإمام القيادية تقتضي توحيد الكلمة ورأب الصدع من أجل الإبقاء على ظاهر الإسلام ووحدته»[٧]. وقد لمس الإمام عليه السلام تناقضات العصر الاجتماعية وأبصر تقلبات المناخ السياسي فرأى أن نتيجة العمل الثوري -في تلك المرحلة- الفشل وذلك لقلة الناصر

وفقدان الوسائل الكفيلة بالإنجاح فعمد إلى إصلاح الواقع بالدعوة إلى الله عمليا[٨]. فكان الدعاء مفتاح ذلك العمل(الإصلاح) وقد اتخذ الإمام عليه السلام هذا المنهج بحكمة وتدبير عن علم بالأمر، وعمد له وأن وراءه سياسة مدبرة مدروسة.

وهكذا استطاع الإمام عليه السلام أن يوظف مشروعه الإصلاحي لنشر أهداف الثورة الحسينية بأبعادها الرؤيوية الشمولية وبأسلوب ارتقت فيه القيم الفكرية التهذيبية القادرة على تفعيل الحراك الذهني فضلا عن القيم الجمالية المبرزة لسحر البيان.

وإذا ما اعتمدنا على ما انتهى إليه الخطاب النقدي المعاصر في بعض مفاصله التي تقول: «لكل فترة نسق أجناس خاصة تربطه علاقات مع الإيديولوجية السائدة»[٩]، ولما كان «الكاتب لا يختار من الألفاظ إلا ما ينسجم وذبذباته الشعورية والوجدانية وطبيعة تركيبه النفسي»[١٠]. وإن الدعاء لا يصدر إلاّ لباعث الإيمان بالله والتسليم لأمره[١١]، نكون قد اقتربنا من معرفة دافع آخر من الدوافع التي حملت الإمام عليبن الحسين عليه السلام على اعتماده السبيل الفكري منهجا للحراك الذهني، والتصحيحالرؤيوي.

وتأسيسا على ما تقدم، جاءت نصوصه عليه السلام منطلقة من قناعته بالمهمة العبادية التي أوكلها الله تعالى للبشر ﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[١٢] منتهجا فيها لغة الشريعة الإسلامية التي اعتمدت القناة الأدبية واحدة من أبرز القنوات في توصيل المبادئ. فجاء خطابه كشفا للحقيقة والإنسان[١٣]، آخذا فيه أسلوبا يَصِحُ شاهدا للرأي النقدي الذي يرى أن على الأسلوب أن يكون معبّراً باعتدال وتوازن بين ذاتية التجربة ومقتضيات التواصل، أي أنه يستوعب الذات والجماعة[١٤].

ومع هذا الاستيعاب كانت فلسفة العقيدة وصفات الجلال والكمال للذات القدسية حاضرة في كل من المناجاة والدعاء[١٥]. فجاءت نصوصه عليه السلام قبسات من روح الدين، فضلا عن أنها أمارات أسلوبية مائزة في ميدان العلم والبيان. ولنا أن نقف عند مجموعة من الشواهد والأمارات التي سأبينها بحسب مقتضيات الدرس الأسلوبي، وقد اعتمدت

الإيجاز والتكثيف في بيانها، مكتفيا بعرض مبحثين فقط لكل مستوى من مستويات الدرس الأسلوبي وبما يتوافق والغرض منالبحث الذي حملني عليإبانة كل من (التكرار الاستهلالي) و (تكرار العبارة) في ضمن المستوى الصوتي،والوقوف عند أسلوبي (الأمر) و (الذكر والحذف) في ضمن المستوى التركيبي، والوقوف عند كل من (المنجز الاستعاري) و (المنجز الكنائي) في ضمن المستوى الدلالي، وقد عرضتها جميعا باختزال وعلى النحو الآتي:

المستوى الصوتي

لما كانت اللغة نظاما من الإشارات جوهره الوحيد الربط بين المعاني والصور الصوتية[١٦]، فإن الغائية من الأصوات لا تتحقق ما لم تكن قد تفاعلت وأنتجت علائق بنائية ودلالية مثمرة. وهنا تتضح قدرة المنشئ على إنتاج تلك العلائق التي من طريقها يتمكن المبدع من بسط سلطته في إيقاظ قدرة التأمل لدى المتلقي، ومن ثم حمله على المشاركة أو إغرائه على محاولة ذلك. آخذين بالحسبان أن «أثر الكلمة الملفوظة لا يتحدد في إثارة حاسة السمع [فحسب]، وإنما في إثارة الجوانب الروحية الكامنة في ذات الإنسان أيضا»[١٧]. وهذا ركن من أركان تحقيق أدبية الأدب التي نجد بعض تجلياتها في:

أولاً: التكرار الاستهلالي

يحقق (التكرار الاستهلالي) وظيفة عضوية بوصفه عامل ربط بين الوحدات ،يتعدى المستوى الصوتي إلى المستوى التركيبي الذي يسهم في التشكيل الدلالي ،وهو بهذا تقنية بنائية تكشف عن براعة المنتج في استثمار المساحة المشغولة بما يحقق فضاءات جمالية مثمرة .

وقد جاء التكرار (ومنه الاستهلالي) حاملا لوظائف فكرية ونفسية فضلا عن الجمالية، وذلك ما تقدمه لنا كل من أدعية الأيام والمناجيات بطريقتي عرض يمكن من ورائهما استشفاف الخصيصة الأسلوبية لكل منهما على حدة.

ولنا في (دعاء يوم الاثنين) شاهد على ما ذهبت إليه، إذ نجد تكرارا للفظة (اللهم) ثلاث مرات، يتوزع على ثلاث فقرات، كل فقرة تشكل وحدة فكرية تتمتع بإيقاع نغمي مستقل (خاص) تختلف بإيقاعها عن الفقرة التي تليها.

وهذا التنوع الإيقاعي بالوقت الذي يكسر فيه رتابة التكرار فإنه يأخذ دور المحفز الذهني عند المتلقي للالتفات إلى المضمون الفكري (المعنوي) للفقرة المقروءة والتهيؤ للقادم من الأفكار، ونجد تجليا له في قول الإمام زين العابدين عليه السلام: ((أَللَّهُمَّ اجْعَلْ أَوَّلَ يَوْمِي هذَا صَلاحَاً، وَأَوْسَطَهُ فَلاحَاً، وَآخِرَهُ نَجاحَاً، وَأَعُوذُ بكَ مِنْ يَوْم أَوَّلُهُ فَزَعٌ، وَأَوْسَطُهُ جَزَعٌ، وَآخِرُهُ وَجَعٌ. أَللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَغْفِرُكَ لكُلِّ نَذْر نَذَرْتُهُ، وَلكُلِّ وَعْد وَعَدْتُهُ، وَلكُلِّ عَهْد عاهَدْتُهُ، ثُمَّ لَمْ أَفِ لَكَ بِه]...[أَللَّهُمَّ أَوْلِنِي فِي كُلِّ يَوْم اثْنَيْن نعْمَتَيْن مِنْكَ ثنْتَيْن: سَعادَةً فِي أَوَّلِه بِطاعَتكَ، وَنعْمَةً فِي آخِرِه بِمَغْفِرَتكَ يامَنْ هُوَ الإِلهُ، وَلا يَغْفِرُالذُّهنُوبَ سِواهُ))[18]. إذ نلحظ أن التكرار الذي جاء به النص المتقدم (بهندسته البنائية المعتمدة) قد مهّد لفضاء حواري يتّسع تدريجيا بتكرير النداء (اللهم) وإن هذا الاتساع يغري المتلقي بالتواصل الروحي مع البارئ سبحانه ويمهّد لحمل (المتلقي/ الداعي) لا شعوريا على السؤال، بتكرير لفظة (اللهم) مقرونة بطلب ذاتي مختمر في نفس الداعي وإن لم يصرّح به. وأجد في هذا تأييدا للرأي القائل بالحقيقة النفسية المتمثلة في «أن السلوك يعتمد في أحد عناصره على التكرار»[19].

وقد جاء التكرار الاستهلالي (المنغّم) مساندا لعمل منظومتين: الأولى فكرية- دلالية، وذلك بجعل (اللهم) (الكلمة المفتاح)[20] لثيمة المقطع لكل مرة ترد فيها كلمة(اللهم). والمنظومة الثانية نفسية، بوصف التكرار انعكاسا لخصيصة ما يعتمل في نفس الباث وفاعلية حضوره .

ويرى الباحث أن (النقطة الحساسة) هذه يمكن تحديد تجلياتها (ذهنيا) عن طريق فحص الأفعال المعتمدة في البنية التركيبية لأسيقة المقطع (اللهم اجعلني من جندك، واجعلني من حزبك، واجعلني من أوليائك). فالفعل (اجعل) مقرونا بـ (اللهم) اعتمده

عليه السلام موظفا الدلالة الإيقاعية لتكرارهما ليؤكد حقيقتين: الولى بيان قدرة الله تبارك وتعالى التي وفّق في إظهارها باعتماد قوة الفعل(الأدائية)[٢١] وقوته (المعنوية) .والحقيقة الثانية هي الإقرار بالعجز، فليس للعبد تحقيق كينونته بمشيئته وحده على وفق ما يشتهي دون اللجوء والرجوع إلى الإعانة الخارجية.

وإذا ما انتقلنا إلى (المناجيات) نجد أن لفظة (إلهي) هي المعتمدة وبتكرار في استهلال المقاطع المكونة للنص، وليس لفظة (اللهمّ). وهذا التحول في اللفظة المعتمدة في التكرار الاستهلالي بين كل من (أدعية الأيام: اللهم) و(المناجيات: إلهي) لم يكن اعتباطيا، وإنما جرى بقصدية تامة جعلت منهما دالا أسلوبيا، فقد جاءتا مرتبطتين فكريا وروحيا مع طبيعة النصوص. أي إن اعتمادها كان مراعاة للظروف البيئية لولادة النص. فلفظة (اللهم) المعتمدة في (أدعية الأيام) تحمل نَفَساً جَمْعيّاً أراه يتوافق والمنظومة القصدية التي خرجت إليها الأدعية (المتلقي العام/ الداعي) .أما لفظة (إلهي) التي اعتمدها الإمام زين العابدين عليه السلام في(المناجيات) فإنها توحي بفعل اقترانها بالياء بالفردية فضلا عن ما تحمله من معاني اللين والانكسار والتقرب التي تتلاءم مع الجو الروحي للنجوى، آخذين بالحسبان ما يحمله فعل (النجوى) من معنى السرية والخصوصية. وفي اعتماد لفظة (إلهي) ما يجعل المتلقي يستشعر تلك الخصوصية مما يدفعه ذلك الشعور إلى الاندماج كليا مع النص اندماجًا روحيًا.

ولنا في (مناجاة الشاكرين)[٢٢] شاهد لما ذكرت، يقول عليه السلام: ((إلهي أَذْهَلَني عَنْ إقامَةِ شُكْرِكَ تَتابُعُ طَوْلِكَ، وَأَعْجَزَني عَنْ إحْصاءِ ثَنائِكَ فَيْضُ فَضْلِكَ، وَشَغَلَني عَنْ ذِكْرِ مَامِدِكَ تَرادُفُ عَوائِدِكَ]...[إلهي تَصاغَرَ عِنْدَ تَعاظُمِ آلائِكَ شُكْري، وَتَضاءَلَ في جَنْبِ إكْرامِكَ إيَّايَ ثَنائي وَنَشْري]...[إلهي فَكَما غَذَّيْتَنا بِلُطْفِكَ، وَرَبَّيْتَنا بِصُنْعِكَ، فَتَمِّمْ عَلَيْنا سَوابِغَ النِّعَمِ، وَادْفَعْ عَنَّا مَكارِهَ النِّقَمِ)). فنجد أن لفظة (إلهي) التي تكررت ثلاث مرات قد شكلت تكرارا استهلاليا على طريقة النسق، اعتمده عليه السلام لمد جسور التواصل الفكري والنفسي

بين أسيقة النص، موظفا ثيمة النص الرئيسية التي أسهم العنوان (مناجاة الشاكرين) في تشكلها، والتي نجح في توزيعامتداداته الترابطية على الأسيقة التالية للفظة (إلهي). وأخذ ذلك التواصل (الفكري والنفسي) يتمظهر بوساطة تكرار (الشكر) خمس مرات. وبهذا يكون التكرار قد خدم السياق في الكشف عن حقيقة خبيئة في (أنا) الباث، وفي جذب انتباه المتلقي إليها أو التشديد عليها[٢٣]، زيادة على إحداث جو نغمي في النص من شأنه أن يعمل هنا -كما عمل في نصوص أدبية- على «تأكيد حضور وحدة أسلوبية ودلالية من أجل إعطائها طابع الاستمرارية في النص»[٢٤]. وحفلت (مناجاة التائبين) بالتكرار الاستهلالي عبر لفظة (إلهي) المتكررة ثماني مرات، مما عمل على خلق فضاء حواري واسع تعددت مشاهده بعدد مرات التكرار، وسمحت سعته بأن يأخذ المتلقي عفويا دورا فيه، أو أن يجد نفسه داخلا في فضاء النص لما تحققه لفظة (إلهي) بوساطة وظيفتها الندائية من رسم أو تصور مشهد حواري قائم بين طرفين: الداعي (الباث) ومن ورائه (المتلقي/ الداعي)، والمدعو (الله تبارك وتعالى). فضلا عن ما قدمه النداء في دعم التماسك النصي[٢٥].

وبيان ما تقدم ذكره نجده في قوله عليه السلام: ((إلهي أَلْبَسَتْني الْخَطايا ثَوْبَ مَذَلَّتي وَجَلَّلَني التَّباعُدُ مِنْكَ لباسَ مَسْكَنَتي وَأَماتَ قَلْبي عَظيمُ جِنايَتي فَأَحْيِهِ بتَوْبَة مِنْكَ يا أَمَلي وَبُغْيَتي]...[إلهي ظَلِّلْ عَلَى ذُنُوبي غَمامَ رَحمَتكَ وَأَرْسِلْ عَلى عُيُوبي سَحابَ رَأْفَتكَ إلهي هَلْ يَرْجِعُ الْعَبْدُ الآبقُ إلاَّ إلَى مَوْلاهُ أَمْ هَلْ يُجيرُهُ مِنْ سَخَطِه أَحَدٌ سِواهُ إلهي إنْ كانَ النَّدَمُ عَلَ الذَّنْب تَوْبَةً فَإنِّي وَعِزَّتكَ مِنَ النَّادِمينَ]...[إلهي بقُدْرَتكَ عَلَيَّ تُبْ عَلَيَّ وَبحِلْمِكَ عَنِّي اعْفُ عَنِّي وَبعِلْمِك بي ارْفَقْ بي إلهي أَنْتَ الَّذي فَتَحْتَ لعبادِكَ بَابَاً إلَى عَفْوكَ سَمَّيْتَهُ التَّوْبَةَ فقلت توبوا إلى الله توبةً نصوحا]...[إلهي إنْ كانَ قَبُحَ الذَّنْبُ مِنْ عَبْدِكَ فَلْيَحْسُنِ الْعَفْوُ مِنْ عِنْدِكَ. إلهي ما أَنَا بأَوَّل مَنْ عَصاكَ، فَتُبْتَ عَلَيْهِ وَتَعَرَّضَ بمَعْرُوفِكَ فَجُدْتَ عَلَيْهِ يا مُجيبَ الْمُضْطَرِّ، يا كَاشِفَ الضُّرِّ))[٢٦].

فإن قراءة أولية للنص توحي بالرتابة الناتجة عن تكرار (إلهي) ثماني مرات، لكن لو تأملنا عنوان النص (مناجاة التائبين) بثيمته المتصورة لرأينا فيه ما يشي بإزاحة شيء من تلك الرتابة، حتى إذا ما تلونا محتواه نجد ما يسوّغ ذلك التكرار ويزيح تلك الرتابة كليا. بتعبير أوضح، لما كان الداعي في موضع التوبة، فلنا أن نعرف:التوبة مِمَّ؟ من الخطايا (وليست خطيئة واحدة) التي ألبسته ثوب المذّلة، ومن الذنوب والعيوب ((ظَلِّلْ عَلَ ذُنُوبِي غَمامَ رَحمَتكَ، وَأَرْسِلْ عَلى عُيُوبِي سَحابَ رَأْفَتكَ)) فنلحظ أن كلاّ من الدلالة الصرفية والدلالة المعجمية بالوقت الذي أسهمتا في إثراء النص دلاليا، فقد كشفتا عن عدد من مسوغات التكرار، فضلا عن ما يحققه التكرار بوساطة تقوية النغم، وإسهامه في ربط الألفاظ بعضها مع بعض[٢٧].

والذي اسْتَشْعِرُه وهو بعض ما وشى به التكرار (مُشَفّراً) أن الداعي في موقف استذكار الذنوب والعيوب والخطايا، ومن ثم فإن هذا الموقف يتطلب التوسل والتخضع ومداومة السؤال بالتوبة والغَفْر وبما يوازي تلك الخطايا والذنوب، مع الإشارة إلى أن للمناجيات جوها النفسي والوجداني الخاص بها، أي أن المناجي يرتلها وقد عاش الهيام الروحي الخالص مع الذات المقدسة، وهذا الوجد الروحي يترك ظلاله بوساطة ألفاظ التقديس والتوسل الموّقعة والمشحونة بحب الإله الذي بدعائه ومناجاته نعمة عظمى، وفيها الروح والراحة ((وَمِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ عَلَيْنا جَرَيانُ ذِكْرِكَ عَل أَلْسِنَتَنا، وَإِذْنُكَ لَنا بدُعآئكَ، وَتَنْزِيكَ وَتَسْبِيحِكَ))[٢٨] ((وَفِي مُنَاجَاتكَ رَوْحِي وَراحَتِي))[٢٩].

ويمكن للمتلقي استشعار ذلك الجو الطقوسي بوساطة فضاء المشاهدالتي جاءت بها أسيقة النص. فكأن هناك شريطا يُعرض على مخيلة الداعي ومعكل موقف من مواقفه (صورة من صوره) دعاء (طلب توبة)، وكأن الإمام زين العابدين عليه السلام اعتمد التكرار (إلهي+ المضمون السياقي) لموازنة الخطايا ومن ثم الموازنة النفسية، فخوفه وهو في موضع التوبة كبير، وقلقه عميق، وهو يقرّ بأن لا ملاذ له إلا الله تعالى. وذلك القلق نستشعره عن طريق تكرار الاستفهام (هل) الذي اعتمده في قوله: ((إلهِي هَلْ يَرْجِعُ الْعَبْدُ الابقُ إلاَّ إلَى

مَوْلاهُ أَمْ هَلْ يُجِيرُهُ مِنْ سَخَطِهِ أَحَدٌ سِواهُ؟)). وكأني بالإمام عليه السلام يريد من وراء ذلك حمل الداعي إلى التفكر في أمره، والتدبّر في عاقبته داعياً إيّاه إلى التوبة النصوح. ولعل في هذا شيئا من الوظيفة التربوية للرسالة السجادية .

ثانيا: تكرار العبارة

لم يشغل هذا الضرب من التكرار مساحة واسعة من النص السجادي المدروس مثلما شغلها التكرار الاستهلالي مثلا، ولكن ارتأيت الوقوف عنده لما حققه من وظيفة فكرية ودلالية ذات قيمة عالية متأتية من قصدية في التفكير والبناء معا شكلت معلما أسلوبيا من معالم النص السجادي الذي انماز بالتعاضد الوظيفي بين مستويات النص المنتجة لأدبيته.

ولا بأس من التنبيه على أنه ليس لي كشف ذلك التعاضد الوظيفي وقيمه، فضلا عن خصيصته الأسلوبية باعتماد نص بعينه، وإنما ذلك يقتضي معاملة (أدعية الأيام) و (المناجيات) كل منهما على حدة على أنها وحدة نصية واحدة لما في ذلك التعامل من فسحة للمقارنة تمكنني من أن أبرز قيمة ذلك التكرار (تكرار العبارة) أدائيا.

ومن دراسة النص السجادي وجدت أن كلاً من أدعية الأيام والمناجيات قداحتفت بتكرار عبارة معينة ستكون هي محور الحديث وموضع الاستشهاد. والعبارةالمعتمدة (المكررة) في أدعية الأيام هي (الصلاة على محمد وآل محمد) مع التنبيه على أن الصلاة على آل النبي مقرونة بالصلاة على النبي، عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأتمّ التسليم.

صحيح أن هذه العبارة هي لازمة من لوازم الدعاء، بل هي شرط موجب من شروطه. فقد ورد في صحيح الخبر أنه «لا يزال الدعاء محجوبا حتى يصلى على محمد وآل محمد»[٢٨]، وصحيح أنها تقال في معظم الأحوال بعفوية وأنها كثيرة الترديد ،وقد ألفتها الأسماع واعتادت عليها، غير أن الإمام زين العابدين عليه السلام أخرجها من منطقة المواضعة المألوفة، وجعل منها منبها أسلوبيا ذا خصيصة مائزة، ومحفزا ذهنيا للقارئ (الإيجابي). وجعل منها باعتماد فنية التركيب موزعا دلاليا وإيقاعيا عمل على خلق وضع ذهني من شأنه أن يعطّل

الاستجابات الآنية ويتهيأ لاستقبال الوافد الجديد.

وبيان ذلك أجده في قصدية البناء ومهارة التوزيع للوحدات التكوينية للعبارة المقصودة في أثناء أيام الأسبوع. إذ إنه عليه السلام ذكر عبارة الصلاة على محمد وآل محمد في يومي الخميس والجمعة على وجه الخصوص بطريقة تختلف عن بقية الأيام .وللإيضاح سأعرض العبارة المعنية فقط دون سياقها الذي وردت فيه ولكل الأيام ليتسنى لنا بعرضها الوقوف عند الفارق الذي أشرت إليه سلفا.

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام: دعاء يوم السبت: ((أَسْأَلُكَ أَنْ تُصَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِه)) [٢٩]. دعاء يوم الأحد: ((فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِ مُحَمَّد خَيْرِ خَلْقِكَ)) [٣٠].

دعاء يوم الاثنين: ((فَأَسْأَلُكَ يا مَنْ يَمْلِكُ الْحاجاتِ، وَهِيَ]...[أَنْ تُصَلِّيَ عَلَى مُحَمَّد وَآلِ مُحَمَّد)) [٣١]. دعاء يوم الثلاثاء: ((أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد خاتَمِ النَّبِيِّينَ وَتَمامِ عِدَّةِ الْمُرْسَلِينَ وَعَلَى آلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ)) [٣٢]. دعاء يوم الأربعاء: ((فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّد خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ)) [٣٣]. دعاء يوم الخميس: ((وَصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّد وَآلِهِ]...[صَلِّ عَل مُحَمَّد وَآلِهِ)) [٣٤]. دعاء يوم الجمعة: ((صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِ مُحَمَّد)) [٣٥].

بلحاظ ما تقدم عرضه يتضح أن طريقة البناء والعرض للعبارة المذكورة قد اختلفت في دعاء يومي الخميس والجمعة عن بقية الأيام. فقد جاءت في دعاء يوم الجمعة وقد انفصلت عن أي رابط (الفاء أو الواو) ودون أن تقترن العبارة بلفظة (اللهم) مثلا أو (أسألك أن) فقد جاءت في اليوم المذكور هكذا مجردة (صل على محمد وآل محمد) ويبدو أن العبارة بهذه التركيبة اتكأت على لهجة آمرة –مجازا– فيها إلحاح [٣٦] يُراد منها التنبيه على شيء ما.

أما في دعاء يوم الخميس، فصحيح أن العبارة نُسجت على منوال أخواتها إلا أنها انمازت منهن بالتكرار، فقد وردت مرتين، فرقا عن بقية الأيام ومردّ ذلك عندي –والله أعلم– أنه عليه السلام أراد أن يلفت العناية إلى فضل صلاة يوم الخميس لأنه يوم مبارك وليلة مباركة عند المسلمين. وأرى في طريقة الإتيان بالعبارة المذكورة في دعاء يوم الجمعة إشارة

جلية إلى أهمية صلاة الجمعة وأفضليتها، وكأني بالإمام زين العابدين عليه السلام قد استحضر الآية القرآنية الكريمة ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذلكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٣٧].

وإذا ما انتقلنا إلى المناجيات الخمس عشرة نجدهن قد احتفين بتكرار عبارة (يا أرحم الراحمين) في أربع عشرة مناجاة، أي باستثناء مناجاة واحدة فقط هي (مناجاة الخائفين). وجاءت العبارة المكررة في نهاية النص تحديدا. أي أنه عليه السلام جعل منهاقفلا أو لازمة ختامية أخذت دورا إيقاعيا مائزاً تمثل باستثمار ما في النداء (المقترن بالعبارة موضع الشاهد) من سمة خطابية عالية[٣٨]. وقد كان على الرغم من بساطته مؤشرا أسلوبيا يخبر بنهاية النص. وجاء تعمد الإتيان بعبارة (أرحم الراحمين) مقرونة بـ (يا) النداء، لتوكيد حقيقتين: الولى: هي التعبير عن شعور مستوطن في ذات الداعي؛ وهو التيقّن بحقيقة رحمة الله، وتعدد صورها ومظاهرها. تلك الصور التي وزع عليه السلام مكوناتها بوساطة تنوع عنوانات المناجيات، واختلاف ثيماتها عن طريق أسيقة النص. وما إثباتها في نهاية النص إلا تشديد على أن مآل الرحمة ومرجعيتها النهائية إلى الله تعالى شأنه، مع الأخذ بالحسبان أن تكرار تركيب معين يأخذ مهمة التأكيد أو يوفر دلالة على تأكيد موقف ما[٣٩]. و«يوفر فرصة لتقليب فكرة ما على وجوهها المختلفة»[٤٠]. والحقيقة الثانية: ترتبط مع سابقتها، ومفادها أن رحمة الله مبذولة لمن يطلبها ويسعى لشموله بها دون تحديد معالم السعي فالأمر متروك للمتلقي ورؤاه، ولا يخفى ما في النداء من التعبير عن «الرغبة إلى الله تعالى وطلب الرحمة منه على وجه الاستكانة والخضوع»[٤١]. وأرى في اقتران (ياء) النداء بعبارة (أرحم الراحمين) كشفا عن تلك الرغبة، كما أن النداء يتضمن دعوة إلى حث (الداعي) على الدعاء وديمومته مع إعطائه بارقة الأمل بقرب الإجابة بوساطة تركيب (يا أرحم الراحمين).

وعودا على ما سبق ذكره من أن مناجاة واحدة فقط خلت من عبارة (يا أرحم الراحمين) وهي (مناجاة الخائفين)، أرى أن لهذا الخلو ما يسوّغه. فلو التفتنا إلى عنوان المناجاة لوجدنا

فيه ما يشي بالقلق والاضطراب النفسي، وهو عادة ما يصاحب الخائف الذي تدور حوله ثيمة النص الرئيسة. وإذا ما انعمنا النظر في أسيقة النص الداخلية نجد فيها ما يؤكد حقيقة ذلك الشعور ومصداقيته من طريق ما يأتي:

١. المعاني التي حملتها تراكيبه، ومنها: ((إلهي أَجِرْني مِنْ أَليمِ غَضَبكَ وَعَظِيمِ سَخَطِكَ، يا حَنَّانُ يا مَنَّانُ، يا رَحِيمُ يا رَحْمنُ، يا جَبَّارُ يا قَهَّارُ، يا غَفَّارُ يا سَتَّارُ، نَجِّني بِرَحمَتكَ مِنْ عَذابِ النَّارِ، وَفَضِيحَةِ الْعارِ))[٤٢].

٢. تنوع أدوات الاستفهام وكثرتها في النص، وتنوع أداة الاستفهام يُظهر ما في نفس الباث من حيرة غالبة وقلق عام[٤٣]، ومن ثم فإن غياب عبارة (يا أرحم الراحمين) أمر مقصود قدّم وظيفة دلالية كبرى لأنه بذكر رحمة الله تطمئن القلوب وتهدأ النفوس ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[٤٤] واطمئنان القلب يتعارض شعوريا مع حال القلق والحيرة التي هي عليها حال الخائف، ومن ثم فإن الغياب الصوتي مهّد لتشكيل إيقاعي (متخيّل) وهذه المفارقة التنغيمية من شأنها أن تعطّل آلية التواصل الآني وتحفز المتلقي ذهنياً وشعورياً للكشف عمّا وراء ذلك الغياب، وصولاً للقيمة الدلالية المنتجة لذلك الغياب. وهذه المفارقة الأدائية حققت عدولا أسلوبيا مثيرا نمّ عن وعي في التفكير والاختيار والتوزيع. وإن الوعي والقصد هما أول ظواهر الشعرية[٤٥].

ولعل فيما تقدم عرضه مظهرا من مظاهر الشعرية وشاهدا لسحر البيان الذي كان وراء إنتاجها الوعي والقصدية، التي بعض ما يؤكد توافرها في النص السجادي موضوع الدراسة الإتيان بعبارة (يا أكرم الأكرمين) التي زيدت بعد عبارة (يا أرحم الراحمين) محور الحديث المتقدم.

والإتيان بعبارة يا أكرم الكرمين في المناجاة الأخيرة حصرا (مناجاة الزاهدين) لم يكن اعتباطا، وإنما قُصِد إليه بعناية. فعلى الرغم من أن هذه العبارة لم ترد إلا مرة واحدة، جعل منها الإمام زين العابدين عليه السلام كلمة رئيسة في موقع متميز اتخذت بروزا دالا يسترعي

الوقوف عنده، وكانت ميدانا تطبيقيا يصدق عليه الرأي القائلإنه مهما كانت فاعلية التشديد على التكرار فإن النسيج الصوتي بعيد عن أن يُحصر في تأليفات متعددة لا غير، فإن (كيلو) من اللون الأخضر ليس أكثر اخضراراً من نصف (كيلو) كما يقول الرسامون[٤٦].

وتأسيسا على ذلك يمكن لي وصف هذه العبارة أكرم الكرمين بـ (الكلمة المؤَسِّسَة) وذلك لفاعليتها في إنتاج سياق ذي كثافة دلالية. و «السياق مجهود إبداعي يصدر عن المبدع»[٤٧]. كما أن بعض فاعليتها يتشكل من المعنى المعجمي فضلا عن الفضاء الصرفي لصيغة (أفعل التفضيل) وما يرافقهما من شعور سار يوحي بأن كل المسائل والحوائج التي طُرِحت في النصوص السابقة مأمولة الإجابة مُيسَّرة القضاء ،فمرجعيتها الختامية هي عند أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين، فجاء توظيفها موقعيا مع ما تحمله من تنغيم إيقاعي لازمة ختامية لخاتمة المناجيات ومفتاحا لدلالة عميقة يمكن تحديد صورها بمشاركة المتلقي الواعي من السياق الغائب الحاضر .

المستوى التركيبي

كل إبداع تجاوز وتغيير، وكل أثر أدبي يكشف غالبا عن أمرين: شيء جديد يقال، وطريقة قول جديدة[٤٨]. ذلك عن طريق التفنن في صياغة تراكيب ذات علاقات واعية، يسعى من ورائها صاحبها بتعمد إلى تحقيق الإبلاغ الفني بطريقة خارقة للمألوف من القواعد القارة في أذهان الجميع. أي الإتيان بما من شانه أن يحقق عدولا بالنسبة إلى معيار، أو كما يسميه(برونو) خطأً مقصودًا[٤٩].

وعلى هذا يصدق الرأي القائل «ليست القيمة في المفردات ذاتها ومن حيث هي كذلك، ولا في النظام النحوي في ذاته ومن حيث هو كذلك لكنها في الاختيار الدقيق بين المفردات والنظام النحوي، والكلمة في التركيب غيرها مجردة مفردة، لأنها مجردة مفردة لا هوية لها ولكن شخصيتها الدلالية تتميز عندما توضع في تركيب»[٥٠]. أي أن طبيعة التركيب هي التي تحدد قيمة اللفظة سلباً أو إيجاباً، «فالرسالة ومحتواها سيفقدان خصوصيتهما المُميِّزة

والإجبارية إذا ما تغير عدد العناصر اللفظية ونظامها وبنيتها»[٥١].

وتأسيسا على ما تقدم فإن فاعلية تلك التأثيرات تقوى وتتزايد بفعل المشاكسة التي يمارسها المبدع مع قواعد التداول المركزية (المعروفة) وصولاً إلى الحدث الأدبي الذي يكمن في تجاوز الإبلاغ إلى الإثارة[٥٢].

وبغية الكشف عن أمارات التجاوز على وفق الفهم المشار إليه فيما تقدم، أقف عند كل من أسلوب (الأمر) وأسلوب (الذكر والحذف) بتوظيفهما الغائي المقصود لبيان براعة منتج النص في استثمارهما مشغلا دالا على قدرة التحكم في الأساليب اللغوية وتوظيفها بيانيا .

أولا: الامر

لما كانت النصوص السجادية متعددة الموضوعات، وذات مواقف مختلفة فمن الطبيعي أن تتعدد أساليب التعبير عن مضامينها المرتبطة بحاجات روحية وفكرية. ويعد أسلوب الأمر أحد أهم الأساليب المعتمدة في الهندسة البنائية لأسيقة النصوص السجادية.

والمتفحص للنصوص المدروسة يرى أن الإمام زين العابدين عليه السلام أعطى لأسلوب الأمر قيمة وظيفية معنوية ودلالية. يُزاد عليها القيمة اللغوية التي أسهمت في تحديد ملامح الصورة المطلوبة لإصابة الغرض المقصود. وتتضح هذه القيم بوساطة وجهتين شكلتا خصيصة أسلوبية متميزة تتجلى بالتركيز على استعمالالأفعال المتعدية لمفعولين. واللافت للنظر منها الفعل (جعل) وبصيغ أمرية متلونة(اجعل، اجعلني، اجعلهما، اجعلنا...) فنرى الفعل (جعل) قد ورد في المناجيات أكثر من عشر مرات، وورد متواليا في أدعية الأيام -السبعة- ابتداء من (دعاء يوم الأحد) وانتهاء بـ (دعاء يوم الجمعة) يعني باستثناء (دعاء يوم السبت). وثانية أقول باستثناء (يوم السبت) لماذا؟ سؤال يستحق التأمل والإجابة.

بعيدا عن تقويل النص وابتعادا عن أن ينحى البحث منحى آخر أقول: ربما إن الذي وراء غياب الفعل (جعل) من دعاء يوم السبت تحديدا مرتبط بعلة كونية (علة خلق الكون)، فالرأي الثابت والمؤكد بالنصوص القرآنية أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق في ستة أيام،

ومصداق ذلك قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّام وَكانَ عَرْشُهُ عَلَ الْماءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّهُكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[٥٣] وقوله تبارك وتعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالَارْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّام ثُمَّ اسْتَوى عَلَ الْعَرْشِ الرَّحْمنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً﴾[٥٤].

وقد ذهبت أشهر الآراء وأكثرها إلى أن الله سبحانه وتعالى بدأ بالخلق يوم الأحد وانتهى منه يوم الجمعة*. ولعل في خلو (دعاء يوم السبت) من فعل (الجعل) ما يشير إلى تلك الحقيقة الكونية. آخذين بالحسبان إن معنى جعل: صنع[٥٥] وتسليما بالحقيقة القائلة إن الله تعالى لم يصنع شيئا يوم السبت لانتهاء الخلق كما تقدم، فكان غياب هذا (جعل) لغياب ذاك. والله أعلم. وبيانا لما تقدم نقف عند (دعاء يوم الجمعة) الذي يقول الإمام عليه السلام فيه: ((أَللَّهُمَّ ثَبِّتْني عَل دِينكَ ما أَحْيَيْتَني، وَلا تُزِغْ قَلْبي بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَني وَهَبْ لي مِنْ لَدُنْكَ رَحمَةً، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ، صَلِّ عَلَ مُحَمَّد وَآلِ مُحَمَّد وَاجْعَلْني مِنْ أَتْباعِهِ وَشِيعَتِهِ وَاحْشُرْني فِي زُمْرَتِهِ وَوَفِّقْني لَداءِ فَرْضِ الْجُمُعاتِ، وَما أَوْجَبْتَ عَلَيَّ فِيها مِنَ الطَّاعاتِ، وَقَسَمْتَ لَهْلِها مِنَ الْعَطآءِ فِيَوْمِ الْجَزآءِ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ))[٥٦]. ومثل ذلك ما نجده في (مناجاة المحبين) التي يقول فيها: ((أَللَّهُمَّ اجْعَلْنَا ممنْ دَأْبُهُمُ الارْتِياحُ إِلَيْكَ وَالْحَنِينُ، وَدَهْرُهُمُ الزَّفْرَةُ وَالَنِينُ، جِباهُهُمْ سَاجِدَةٌ لعَظَمَتكَ]...[وَأَنْ تَجْعَلَكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا سِواكَ وَأَنْ تَجْعَلَ حُبِّي إِيَّاكَ قآئِداً إِلى رِضْوانكَ، وَشَوْقِي إِلَيْكَ ذآئِداً عَنْ عِصْيانكَ، وَامْنُنْ بِالنَّظَرِ إِلَيْكَ عَلَيَّ، وَانْظُرْ بِعَيْنِ الْوُدِّ وَالْعَطْفِ إِلَيَّ، وَلا تَصْرِفْ عَنِّي وَجْهَكَ، وَاجْعَلْني مِنْ أَهْلِ الإِسْعادِ وَالْحُظْوَةِ عِنْدَكَ، يا مُجِيبُ، ياأَرْحَمَ الرَّاحِينَ))[٥٧].

بلحاظ طريقة عرض النصوص المتقدمة يرى الباحث أن اختيار الإمام عليه السلام للفعل كان مقصودا (غائيا) يريد به توسل قوة الفعل على العمل (التعدية إلى مفعولين) دليلا لبيان قدرة الخالق تبارك وتعالى وتمكنه على تلبية الحاجات، وفي هذا بيان (ضمني) لرحمته التي تبعث الرجاء عند صاحب الدعاء والأمل في الاستزادة طمعا في نيل سؤلته .

وحملت لنا (مناجاة المطيعين لله) شاهدا على ما تقدم ذكره. وللباحث رغبة شديدة في التنبيه إلى عنوان النص، مناجاة (المطيعين لله) فهي المناجاة الوحيدة التي أضيف فيها اسم الله إلى اسمها فرقا عن جميع عنوانات المناجيات الأخر. ومرد ذلك عندي أن الإمام زين العابدين عليه السلام أراد التنبيه والتوجيه إلى حتمية جعل الطاعة لله تبارك وتعالى من دون سواه، أي أن تكون جميع العبادات والمعاملات تصب في طاعة الله. وما إضافة لفظ الجلالة إلى العنوان إلا تأكيد لذلك. وصحيح أن بقية المناجيات يصح أن يقترن اسم الله بها كأن تكون (مناجاة التائبين لله أو الذاكرين لله أو الشاكين لله أو المفتقرين لله أو... الخ)، وهي كلها مقبولة وتحمل دلالات سياقية بيّنة، غير أن التأمل في عنوانات المناجيات يقودنا إلى نتيجة واحدة مفادها أنها كلها تصدر عنطاعة الله أو تدور في فلكها، آخذين بالحسبان أن طاعة الله تعني العمل بما أمر بهوالامتناع عما نهى عنه. وما صورة التائبين أو المحبين أو الذاكرين أو الخائفين أو ...الخ، إلا وجه من أوجه طاعة الله تبارك وتعالى. ثم إن دراسة النصوص السجادية كشفت عن أن كل عنوانات المناجيات كانت مفاتيح لدلالة مركزية واحدة هي (طاعة الله). يقول الإمام زين العابدين عليه السلام في مناجاة (المطيعين لله:) ((أَللَّهُمَّ أَلْهِمْنا طاعَتَكَ، وَجَنِّبْنا مَعْصِيَتَكَ، وَيَسِّرْ لَنا بُلُوغَ ما نَتَمَنّى مِن ابْتِغاءِ رِضْوانِكَ، وَأَحْلِلْنا بُحْبُوحَةَ جِنانِكَ، وَاقْشَعْ عَنْ بَصائِرِنا سَحابَ الارْتِيابِ، وَاكْشِفْ عَنْ قُلُوبِنا أَغْشِيَةَ الْمِرْيَةِ وَالْحِجابِ، وَأَزْهِقِ الْباطِلَ عَنْ ضَمآئِرِنا، وَأَثْبِتِ الْحَقَّ فِي سَائِرِنا، فَإِنَّ الشُّهكُوكَ وَالظُّهنُونَ لَواقِحُ الْفِتَنِ، وَمُكَدِّرَةٌ لِصَفْوِالْمَنآئِحِ وَالْمِنَنِ. أَللَّهُمَّ احْلُنا فِي سُفُنِ نَجاتِكَ، وَمَتِّعْنا بِلَذِيْذِ مُناجاتِكَ، وَأَوْرِدْنا حِياضَ حُبِّكَ، وَأَذِقْنا حَلاوَةَ وُدِّكَ وَقُرْبِكَ، وَاجْعَلْ جِهادَنا فِيكَ، وَهَنا فِي طاعَتِكَ، وَأَخْلِصْ نِيَّاتِنا فِي مُعامَلَتِكَ، فَإِنَّا بِكَ وَلَكَ، وَلا وَسِيلَةَ لَنا إِلَيْكَ إِلاَّ أَنْتَ))[٥٨].

فقراءة النصوص المتقدمة تُفصح عن كيفية الاشتغال المعتمدة لدى الإمام عليه السلام التي تعد أحد المعالم المستخدمة في هذا الأسلوب وقد شكلت خصيصة مائزة، نصل من طريقها إلى معرفة القيمة الوظيفية الثانية لأسلوب الأمر وقد سبقت الإشارة إليها، وهي علاوة

على تداخلها مع سابقتها في (القيمة الأدائية) إن صح القول فإنها تنماز بتوظيف أفعال الأمر توظيفا اتشح بالوجدانية (الروحية)، يتجسد ذلك التوظيف بشكل جليّ في أدعية الأيام التي نجد فيها الإمام زين العابدين عليه السلام يتفنن في عرض الأفعال وتوظيفها، فهو يقول في: دعاء يوم الاثنين: ((أَللَّهمَّ أَوْلِنِي فِي كُلِّ يَوْمٍ اثْنَيْنِ نعْمَتَيْنِ مِنْكَ ثنْتَيْنِ))[٥٩]. دعاء يوم الثلاثاء: ((وَهَبْ لِي فِي الثُّلاثآءِ ثَلاثاً))[٦٠]. دعاء يوم الأربعاء: ((أَللَّهُمَّ اقْضِ لِي فِي الاَرْبِعآءِ أَرْبَعاً))[٦١]. دعاء يوم الخميس: ((أَللَّهُمَّ اقْضِ لِي فِي الخَمِيسِ خَمْساً لا يَتَّسِعُ لَها إلاَّ كَرَمُكَ وَلا يُطِيقُها إلاَّ نعَمُكَ))[٦٢].

وقد قرأنا النصوص موضع الشاهد فالباحث يوجه عناية المتلقي عند قراءته لأدعية الأيام للالتفات إلى فنية التركيب في توظيف الأفعال الأمرية وصياغتها التي عرضها الإمام عليه السلام بطريقة (بنائية – تنغيمية) تشوّق السائل وتحفّزه إلى إعادتها يوميا، مولّدة في نفسه شعور الاستئناس بالاطمئنان والإجابة باعثة الرغبة في التواصل الروحي، وهي خطوة من خطوات التهذيب النفسي، وهذا من دون شك من أهداف الرسالة السجادية.

أزيد على ذلك أن طريقة العرض نفسها قُصِد ان تكون جمالية / تشويقية ،فبالوقت الذي يسأل فيه مسألتين (يوم الاثنين) نجده عليه السلام يسأل في الثلاثاء ثلاثاً، وفي الأربعاء أربعا، وفي (يوم الخميس) مع انه يسأل خمسا لكنه عليه السلام يعرضها بطريقة سعى بوساطتها كسر رتابة الترديد مع تهيئة نفس المتلقي بتوقع الجديد، ذلك تحقق بإضافة تركيب جديد، اعني عبارة ((لا يَتَّسِعُ لَها إلاَّ كَرَمُكَ وَلا يُطِيقُها إلاَّ نعَمُكَ)).

هذا التركيب فتح الباب للعدول عما ألفناه في أدعية الأيام السابقة، وذلك بمفاجأة المتلقي بصياغة جديدة خرقت المتوقع وكسرت رتابة التكرار، هذه المفاجأة تحققت في (دعاء يوم الجمعة) بطريقة (قصدية) جاءت متوافقة والأعمال المتعددة ليوم الجمعة. التي إن عدّدها ولّدت جوا رتيبا، وربما مملا، فلذلك جاءت المطالب إجمالا مصوغة بقوله عليه السلام ((وَوَفِّقْنِي لَداءِ فَرْضِ الْجُمُعاتِ، وَما أَوْجَبْتَ عَلَيَّ فِيها مِنَ الطَّاعاتِ))[٦٣].

مما تقدم نلحظ أن الإمام عليه السلام بنى النص بناء منظما بوحدات تركيبية موزعة بقصدية مسوّغة، وعلى وفق رؤية ناضجة في استثمار المساحات البنائية واشغالها بما يثري الدلالة المنتجة، وقد حققت هندسته البنائية عدولا أسلوبيا مُنْتِجاً علاماتجمالية تستدعي الالتفات إليها.

ثانيا: الذكر والحذف

يُعدّ الذكر القالب المعياري في الجملة العربية التي تقوم على المسند والمسند إليه .هذا في الأصل، ولكن أحيانا يجيء الخطاب خارجا عن هذا الأصل، وهذا الخروج مرتبط بـ (مقتضى الحال). أعني أن الخروج يكون مقرونا بالغرض من الخطاب وموضوعه ومناسبته، زيادة على تمكن صاحبه من التفنن في استخدام الأساليب اللغوية بما يخدم غاية الخطاب، و ذلك الخروج يجعل النصوص تتمتع بالصفة الأدبية، أو يمكن وسمها بأنها (بلاغية.)

وواحد من أوجه الخروج هذه هو أسلوب (الذكر والحذف)، لأنهما «يمثلان ظاهرتين أسلوبيتين تقومان على تفجير شحنات فكرية لدى المتلقّي بهدف إحداث (صدمة) لغوية عند الطرف المستقبل وجعل ذهنه في حالة استنفار دائم»[٦٤]. على أن نستحضر في الأذهان «أن متطلبات السياق هي المحددة لأهمية كل من الذكر والحذف»[٦٥]. بمعنى آخر إن المنشئ يعمد إلى الذكر والحذف ليُحدث عدولا مسوّغا يُسهم في بناء أدبية النص، فلجوء المنشئ إلى الحذف (حرفا كان أم جملة) إنما يقع في النص ضمن معادلة مفترضة (إبعاد تركيبي مع استدعاء ذهني- خيالي لإنتاج دلالي) وهو على ما يرى الجرجاني (عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فأنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذ لم تبن)[٦٦]. وعلى هذا فالحذف ما لم يكن قصديا فهو لون من العجز وضرب من العبث في التركيب.

ولأسلوب (الذكر والحذف) حضور واضح في النصوص المدروسة، جاءبوظائف تعددت بتعدد أنماط الحذف وغايات الذكر، ويمكن بيان ذلك بوساطة التفصيل الآتي: يأخذ الحذف أنماطا متعددة. فمنه ما تمثل في حرف أو كلمة أو جملة .فمن أنماط حذف

الحروف في النصوص السجادية المدروسة ما نجده في (دعاء يوم الخميس) الذي يقول الإمام زين العابدين عليه السلام فيه: ((أَلْحَمْدُ لِّهِ الَّذِي أَذْهَبَ اللَّيْلَ مُظْلِماً بِقُدْرَتِهِ وَجآءَ بِالنَّهارِ مُبْصِرا بِرَحَتِهِ وَكَساني ضِياءَهُ وَآتاني نعْمَتَهُ))(٦٧) .

وتقدير الكلام: الحمد لله الذي أذهب [عنا] الليل مظلما بقدرته، وجاء [لنا] بالنهار مبصرا برحمته. ودليل الباحث إلى ذلك، يستمده من القرينة التي جاءت في الفقرة التالية للنص المذكور ((وَكَساني ضِياءَهُ وَآتاني نعْمَتَهُ)) بلحاظ التخصيص المتحصل من اقتران الضمير (ياء المتكلم) بكل من الفعلين (كسا، وآتى) وبما يحمل هذا التخصيص من إشارة إلى شمول المتحدث(الداعي) بانتفاعه بنعمة الضياء.

ومما تجدر الإشارة إليه، هو أنني اعتمدت تقدير (عنا) وليس (عني) وقدرت (لنا) دون(لي) والتقدير الثاني لكلا الموضعين يتوافق دلاليا وتركيبيا مع (كساني) و (آتاني) علاوة على انسجامهما مع الفضاء الصرفي لهما. وعندي لذلك التقدير ما يسوغه. لو كان التقدير (عني) و (لي) لكان في ذلك ما يوحي أو يوهم بتحجيم لقدرة الله تعالى شأنه وتحديدا لرحمته، ولما كان الواقع خلاف ذلك جعلت التقدير (عنا) و (لنا) لما فيه من شمولية واتساع تتناسب وحقيقة المقام .

والمستشفُّ من النص المتقدم أن الحذف حقق عدولا أسلوبيا شكّل دعامة من دعائم تمييز الأسلوب بخلقه فضاء ذهنيا وتصوريا أوسع مما يحققه النص لو صُرِّح بهذا المقدر بمعنى أن الإمام عليه السلام بهذا الحذف وسّع فضاء النص وأضفى عليه شيئا من الامتداد أو (الشمولية) وبما يمكّن المتلقي من استشعار اللامحدودية وبما يتناسب مع القدرة والرحمة الإلهية، فجاء الحذف أبلغ بيانا وأعمق دلالة. وحققالإمام زين العابدين عليه السلام مفاجأة أو عدولا أسلوبيا كان بمنزلة (صدمة ذهنية) ،ذلك من الحذف الذي تعمده عند طريق الإتيان بفعل الأمر (صلِّن) دون اقترانه بمتعلق (رابط لفظي) كما اعتدنا ملاحظته و (ملازمته) في جميع أدعية الأيام.

والمجيء بهذه الكيفية حقق غايتين، سأبينهما بعد الإتيان بالشاهد الذي حمله لنا (دعاء يوم الجمعة) الذي يقول الإمام عليه السلام فيه: ((أَللَّهُمَّ ثَبِّتْنِي عَلى دِينكَ ما أَحْيَيْتَنِي، وَلا تُزِغْ قَلْبِي بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنِي، وَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ رَحمَةً، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ، صَلِّ عَلى مُحَمَّد وَآلِ مُحَمَّد وَاجْعَلْنِي مِنْ أَتْباعِهِ وَشِيعَتِهِ وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَتِهِ وَوَفِّقْنِي لَداءِ فَرْضِ الْجُمُعاتِ))[٦٨]. إذ يتضح من النص المتقدم وباعتماد الهيكلية البنائية لعبارة الصلاة على محمد وآل محمد مع استحضار هيكلية العبارة في الأيام الأخر بأن هناك حذفا مقصودا (غائيا) تعمده الإمام عليه السلام لغاية فكرية – دلالية أراد إيصالها إلى المتلقي. وبمقارنة العبارة –موضع الشاهد– مع قريناتها في أدعية الأيام الأخر نصل إلى أن هناك أكثر من احتمال يصح أو يُقبل لسد الفراغ (الحذف) الذي استعمله الإمام عليه السلام كـ (شفرة أسلوبية) تستوقف المتلقي لإثارته ذهنيا. فيمكن أن يكون الحرف المحذوف هو حرف (الواو). أو لفظة (اللهم). وتكون عبارة (أسألك أن تصلي) احتمالا مقبولا. كما يمكن أن يكون الحرف المحذوف هو حرف (الفاء) وهو الاحتمال الأرجح كما أرى باعتماد السياق الذي ورد فيه الشاهد.

وأرى في هذا الحذف الذي تحقق في دعاء يوم الجمعة حصرا فارقا أسلوبيا قائما على عمق دلالي ينوه بفضل الصلاة وعظيم ثوابها في هذا اليوم المبارك –وقد جرى بيانه في مبحث تكرار العبارة– وأرى فيه مصداقا لقول الجرجاني: «رُبّ حذفٍ هو قلادة الجِيْد وقاعدة التجويد»[٦٩].

أما المواضع التي ورد فيها أسلوب (الذكر) بطريقة موظفة بلاغيا ودلاليا فهيالأخرى متعددة، وقد أضفت فضاء إيحائيا عمل على إدامة الإحساس بالتواصل الشعوري بين النص ومتلقيه، ولنا أن نعتمد ما جاءت به (مناجاة المعتصمين) شاهدا على ما تقدم ذكره، يقول فيها الإمام زين العابدين عليه السلام: ((وَلَكَ أَسْأَلُكَ بِأَهْلِ خاصَّتكَ مِنْ مَلائكَتكَ، وَالصَّالِحِينَ مِنْ بَرِيَّتكَ،أَنْ تَجْعَلَ عَلَيْنا واقِيَةً تُنْجِينا مِنَ الْهَلَكاتِ، وَتُجَنِّبُنا مِنَ الآفاتِ،وَتُكِنُّهنا مِنْ دَواهِي الْمُصِيباتِ))[٧٠].

إذ نرى أنه عليه السلام ذكر ما لو أنه حُذِف لما فسد المعنى، وذلك في قوله (ولك أسألك) فلو حُذفت (لك) لبقي التركيب تاما مع استيفاء المعنى وتحقق الدلالة .ولكن علّة الذكر تكمن في أن الإمام عليه السلام يريد بتوظيف أسلوب الذكر تعظيم شأن المذكور عز شأنه مُعبّرا عنه بكاف الخطاب الذي عمل على «دخول المرجع إلى دائرة الفخامة نتيجة لتحول عملية المواضعة من الاسم الصريح إلى ما يدل عليه»[٧١].

وأرى في هذا اللون من (الذكر) أنه يعمل على تعميق الشعور الذي يشي بالعجز والضعف من جهة، وبالطمع والرغبة في نيل المسألة من جهة أخرى من طريق تأكيد القصدية في السؤال التي حققت تكثيفا دلاليا بفضل فنية الصياغة (لك أسألك) ،وهذا التكثيف يوحي بقَصْر المرجعية إلى طرف محدد بعينه، يدعم ذلك ويؤكد تلك القصدية ما جاء في (مناجاة المريدين) التي جاءت متضمنةلقوله عليه السلام ((فَأَنْتَ لاَ غَيْرُكَ مُرادِي، وَلَكَ لا لِسِواكَ سَهَرِي وَسُهادِي))[٧٢]. مما كشف عن براعته في توظيف الضمير توظيفا فكريا ودلاليا مع الأخذ في الحسبان الدور الجوهري الذي تقوم به الضمائر في النسيج النحوي، فهي خلافا لكل الأسماء المستقلة الأخرى كيانات نحوية وعلائقية خاصة[٧٣].

وحققت (مناجاة المحبين) عدولا أسلوبيا مائزا بوساطة اعتماد أسلوب(الذكر) الذي وظفه المنشئ عليه السلام توظيفا فكريا ينم عن وعي وحسبان، ذلك بإدخال اسم الإشارة (ذا) على الاسم الموصول (الذي) مع إمكانية حذف الأول والإبقاء على سلامة المعنى والمبنى. علما بأنه تحقق مثل هذا فعلا، أعني حذف اسم الإشارة في موضع مشابه لموضع الشاهد، ذلك هو ما جاءت به (مناجاة الراجين) التي يقول الإمام عليه السلام في أحد مقاطعها: ((إلهي مَنِ الَّذِي نَزَلَ بكَ مُلْتَمِساً قِراكَ فَما قَرَيْتَهُ؟ وَمَنِ الَّذِي أَناخ بِبابكَ مُرْتَجِياً نَداكَ فَما أَوْلَيْتَهُ؟))[٧٤].

وليس من شك بأن المقطع المذكور تام المعنى سليم المبنى. على حين نجد أنه عليه السلام تعمد ذكر اسم الإشارة (ذا) في المقطع –موضع شاهد (الذكر)– الذي جاءت به (مناجاة المحبين) التي يقول عليه السلام فيها: ((إلهي مَنْ ذَا الَّذِي ذَاقَ حَلاوَةَ مَحَبَّتِكَ، فَرامَ مِنْكَ بَدَلاً؟ وَمَنْ

ذَا الَّذِي أَنسَ بقُرْبكَ، فَابْتَغَى عَنْكَ حِوَلاً؟))[٧٥].

وقراءة ثانية للمقطع (مناجاة المحبين) تمكّن القارئ المشارك من رصد القيمة الدلالية التي أضافها أسلوبالذكر (ذا) على ثيمة النص.تلك القيمة التي يمكن كشف تجلياتها باعتماد عنوان النص (مناجاة المحبين) الذي أنتج منه الإمام عليه السلام وحدة دلالية فاعلة تركت آثار فاعليتها على الهندسة البنائية لأسيقة النص.

بيان ذلك نجده عبر المقارنة بين العنوانين عنوان النص المعتمد في (الذكر) (مناجاة المحبين) وبين النص المقابل المعتمد في (الحذف) (مناجاة الراجين). ففي قول (المحبين) ما يفصح عن تحقق الحب في صدور المحبين، أي أنه واقع فعلا (موجود) عزز ذلك التصور هيمنة الأفعال الماضية في أبنية النص. أما في لفظة (الراجين) ففيها ما يشي بوجود شيء ما متوقع الحصول. أي فيها (الراجين) ما ينبىء أو يُشْعر بالتأمل والتوقع، يعني أشياء يرجى تحقيقها، فهي ليست لها وجود على أرض الواقع(غير متحققة). ومن ثم فإن ذكر اسم الإشارة (ذا) في مناجاةالمحبين ما يشير إلى ذلك المتحقق فعلا(الحب). والإتيان به مع أداة الاستفهام (مَنْ) أراه قد خرج للتعجب. أي كأني بالإمام عليه السلام يتعجب من هذا الذي ذاق محبة الله ويروم منه بدلا، ويعجب من الذي يأنس بقربه تعالى ويبتغي عنه حِوَلا.أما غياب اسم الإشارة في (مناجاة الراجين) فكأني بالإمام عليه السلام وظّف هذا الغياب إشارة منه إلى غياب الأفعال (المطالب) المرجوة، حتى وإن كان الغياب آنيا. وصحيح أن التركيب المعتمد في مناجاة الراجين وهو مقترن مع (مَنْ) الاستفهامية خرج للإنكار أي (الاستفهام الإنكاري) إلا أنه مع ذكر (ذا) في (مناجاة المحبين) حمل دلالة الاستغراق في الإنكار. وهذا الذكر يتوافق دلاليا مع عنوان النص وثيمته معا.

المستوى الدلالي

معروف أن اللغة هي ملكية مشاعة للجميع، وهي بهذا الوصف «أداة غير فاعلة من أدوات الأمة»[٧٦]. لكن، إذا ما أُريد تفعيل هذه الأداة مع الرغبة في تحقيق خصوصية في آلية التفعيل، فعند ذاك يمكن (للكلام) أن يكون صورة لذلك التفعيل أو وجها له، بوصفه نشاطا فرديا يتمتع به هذا الشخص أو ذاك ويتصرف به على وفق مشيئته، وهذه المشيئة مرتبطة ارتباطا دينامياً بالرصيد اللغوي، وبالقدرة والكيفية على التصرف بهذا الرصيد .

وبغية معرفة المستوى الدلالي، والوقوف عند قيمه الوظيفية، نتناوله متجليا في أهم الصور البلاغية المتحقق فيها ذلك التوظيف القائم على التشارك العلائقي ،والمنتج لفضاءات مشتملة على قيم فكرية وجمالية. وبعض ذلك نرصده ونتابعه في:أولا: المنجز الاستعاري

لقد جاءت النصوص السجادية بمجازات استعارية متعددة منحت المتلقي فرصة المشاركة والتمتع بدافع الإيحائية التي خلفتها التراكيب المعتمدة في إنتاج الاستعارة. آخذين في الحسبان أن قيمة الاستعارة مرهونة بشدة الصدمة ودرجة التوتر المتحققة لدى المتلقي والمتولدة من حجم المفارقة بين ما هو قار في الأذهان ،وبين الجديد وغير المتوقع. وهذه المفارقة هي تحصيل الخرق لقانون اللغة[٧٧]. وهنا تتجلى قدرة الأديب المبدع على الإنتاج الاستعاري بإنزال الدهشة في نفس المتلقي بوساطة تشغيل القواعد اللغوية، واستثمار نتائج هذا التشغيل بما يحققه من علائقية في إنتاج قيم جمالية تصنع لنفسها محطة للوقوف عندها بوصفها خصيصة أسلوبية؛ لأن الأسلوب الاستعاري هو الذي لا يمكن أن يستعيره المرء من غيره وهو آية الموهبة[٧٨]. وقد حملت (مناجاة العارفين) واحدة من تلك المجازات التي جاءت على سبيل الإستعارة المكنية، فقد جاء في ضمنها: ((إلهي فَاجْعَلْنا مِنَ الَّذِينَ تَرَسَّخَتْ أَشْجارُ الشَّوقِ إلَيْكَ فِي حَدآئِقِ صُدُورِهِمْ، وَأَخَذَتْ لَوْعَةُ مَحَبَّتِكَ بِمَجامِعِ قُلُوبِهِمْ، فَهُمْ إلَى أَوْكارِ الاَفْكارِ يَأْوُونَ، وَفِي رِياضِ الْقُرْبِ وَالْمُكاشَفَةِ يَرْتَعُونَ، وَمِنْ حِياضِ الْمَحَبَّةِ بِكَأْسِ الْمُلاطَفَةِ يَكْرَعُونَ))[٧٩].

إذ يُقدم لنا الإمام زين العابدين عليه السلام في النص المتقدم أكثر من صورة فياضة بالمعاني الموحية من خلال التراكم الاستعاري (المكني) الذي اعتمده في إيصال المفهوم الدلالي، موظفا كلا من الأثر الصوتي (السجع) المتحقق من التنغيم الموسيقي المشترك بين كل فقرتين أو ثلاث على حدة، علاوة على التركيب اللغوي (اختيارا وتوزيعا) الذي بوساطته عرض المعنى بطريقة تجاوزت المرجعيات القارة في الأذهان مما أعطى فرصة للتأمل والتخييل عن طريق الأسئلة المُستحْدَثَة في ذهن المتلقي عند القراءة. فسؤاله عليه السلام أن يكون من المشتاقين لله جلّ شأنه قدّمه لنا بطريقة عطلت المدارك الآنية للمتلقي بخرقها للمألوف والمتداول من الصيغ التعبيرية، واعتمادالأسلوب المجازي الذي جاء على سبيل (الاستعارة المكنية) حيث مثّل الشوق لله بالحدائق أو الرياض، وقد حذفها وجاء بلازمة من لوازمها وهي (الأشجار) .

ثم نجد لذلك الشوق ولذلك الحب الإلهي تعضيدا دلاليا جاءت به الفقرة الثانية:

((وَأَخَذَتْ لَوْعَةُ محَبَّتِكَ بمَجامِعِ قُلُوبِهِمْ)) وهي فقرة استوفت بنفسها غرضا دلاليا ،إذ مكننا عليه السلام من استشعار لوعة الحب ليس من خلال الأخذ بالقلوب فحسب، بل بمجامع القلوب أيضا، وفي ذلك بيان وتأكيد لكبر اللوعة وعمقها.

ثم ينقلنا عليه السلام إلى صورة جديدة يحققها بوساطة التوظيف البنائي والتعالق الدلالي الحاصل بين (الأوكار) و (الإيواء) فجعل من الأوكار بما تحمله من معاني السكينة والاطمئنان والملاذ المقصود، مأوى للتفكر لحاجة الأخير إلى الهدوء والتأمل فكأن تلك لهذا.

وتلك الصورة جاءت عن طريق اعتماد (المجاز الاستعاري – المكني) وذلك بتشبيه الأفكار بالمحطات أو المنازل الآمنة التي هي مواضع السكن المرغوب فيها لطالبه وأليفه، وقد حذفها وجاء بلازمة من لوازمها وهي (الأوكار.)

وأود الإشارة هنا إلى التقارب الدلالي بين (الرياض والحياض) وبين (القرب والمحبة) وبين (يرتعون ويكرعون)، فهذا الترابط والتداخل البنائي والدلالي شكّل لوحة يحلو الوقوف عندها للتأمل حتى ليرجو المتأمل أن يعيشها على وجه الحقيقة لما أنتجه التشكيل

المعتمد في بناء الصورة الاستعارية من حركية كأنها ماثلة للعيان ،فجعل القرب والبوح الصادق بالمكنون مرتعا تطيب عنده الإقامة، ويزيدها طيبًا الارتواء من حياض المحبة.

ويرى الباحث أنه لا بد من الوقوف قليلا لتأمل قوله عليه السلام: ((كَأْس المُلاطَفَةِ)) ففيه صورة مجازية مثيرة، فعلى الرغم من الاختزال التركيبي ينم السياق عن القدرة وعن حسن الاختيار للألفاظ من جهة وربطها بعلائق واعية من جهة أخرى ،ولاسيما أن براعة التركيب قد تضفي(الفضيلة) على الصيغة المعجمية[٨٠].

وأحسب أن المجاز الاستعاري المتحقق في (حياض المحبة) و(كأس الملاطفة) قد أسهم في إظهار تلك الفضيلة التي تتجلى ببراعة التشكيل وانسجامه، إذ شبه عليه السلام الملاطفة بالشرب الذي حذفه، وذكر لازمة من لوازمه وهي (الكأس). ولا يخفى على المتلقي الواعي اشتراك اللفظتين (الكأس والملاطفة) بالانسجام الدلالي وتوافقه الذي يدور حول مفهوم واحد هو (الرقة). ولعل في إبراز المعاني العقلية بصورة حسية ما يدفع المخاطب إلى الانتباه على التجميل. وفيه أيضا وجه من أوجه كمال البيان[٨١].

وقد توافرت كل من (الاستعارة المكنية) و (الاستعارة التصريحية) في نص واحد تجسدت فيه براعة التصوير الإيحائي، وذلك ما تقدمه (مناجاة التائبين) التي يقول الإمام زين العابدين عليه السلام فيها: ((إلهي أَلْبَسَتْني الْخَطايا ثَوْبَ مَذَلَّتي، وَجَلَّلَني التَّباعُدُ مِنْكَ لِباسَ مَسْكَنَتي]...[إلهي ظَلِّلْ عَلَى ذُنُوبي غَمامَ رَحمَتكَ، وَأَرْسِلْ عَلى عُيُوبي سَحابَ رَأْفَتكَ))[٨٢].

فالمجاز الاستعاري في النص المتقدم يحمل خصيصة أسلوبية بانزياحية عالية ،وذلك بوساطة التداخل والتشارك بين نوعي الاستعارة (المكنية والتصريحية) فقد وُظفت كلتاهما بطريقة جاءت مزدانة بحركية أضفت على النص سعةً في الفضاء الدلالي من طريق التداخل الاستعاري في الصورة الواحدة في ضمن الفقرة الواحدة من جهة، وعن طريق التشخيص والتجسيد اللذين اعتمدهما الإمام عليه السلام مما أعطيا لمسة مسرحية (حركية) تشد المتلقي للتفاعل والتواصل من جهة ثانية. وكان ذلكبجعل الخطايا وكأنها ماثلة للعيان

(شاخصة) ولها القدرة على القيام بما يمكن أنيقوم به شخص ما (القدرة على الإلباس) ثم دلل على تلك القدرة من خلال التجسيد الذي اعتمده في تكملة الصورة المفترضة بجعل (المذلة) ثوبا من نسج الخطايا، ثم عمل الإمام زين العابدين عليه السلام على تعزيز المفهوم الدلالي تصاعديا بتوظيف القوى التركيبية (البنائية) لفعل (التباعد) لما يتضمنه من معنى القصدية، وجعل الابتعاد المتعمد من الله تبارك وتعالى سببا لكسوته بلباس المسكنة.

وإذا ما انتقلنا إلى الفقرة الأخرى، نجد أن الإمام زين العابدين عليه السلام ينقلنا باتجاه عمودي إلى معرض صوري آخر يعطي لما تقدم ذكره من صور استعارية ،امتدادا في الفضاء الدلالي المتشكل من التواصل الفكري مع استثمار البناء التركيبي علاوة على الصوتي – نسبيا– مما أسهم في إغناء الفكرة وعرض المعنى بطريقة فنية مشوقة. وتوضيحا لما تقدم اعرض الشاهد بالشكل الآتي:

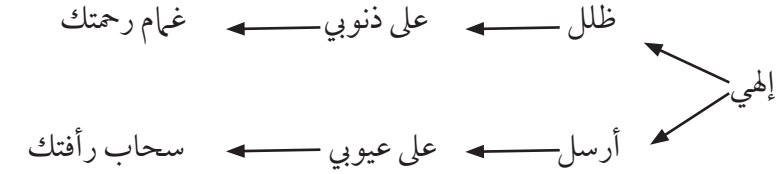

يكشف لنا التركيب عن وعي الاختيار للألفاظ وحسن التوزيع حتى لتشعر كأن (فونيمات) التركيب الأول أثقل وأفخم (صوتيا) من (فونيمات) التركيب الثاني، ومرد هذا عندي علة معنوية – دلالية. فكأن المعنى الذي جاء به التركيب الأول لسعته يتطلب توظيف قوة التنغيم (التفخيم) الصوتي للمشاركة في توسيع المدى الدلالي المتوافق مع سعة الرحمة لله تبارك وتعالى الواجب استحضارها في موضع التوبة، وفي هذا تعاضد دلالي آخر بين ثيمة النص وعنوانه(مناجاة التائبين.)

ثانيا: المنجز الكنائي

اشتمل النص السجادي على صور كنائية أسهمت في بلورة الرؤية الفكرية االمراد تبليغها مع استحضار دور المتلقي المنتج وفاعليته في التشكيل الدلالي بعد القيام بما يدعى بـ (الفرض الاستكشافي)[٨٣] وصولا إلى ما لم يقله النص على حد سواد الصفحة. وشاهد ما تقدم نجده في (مناجاة الخائفين) التي يقول فيها الإمام زين العابدين عليه السلام: ((إلهي هَلْ تُسَوِّدُ وُجُوهاً خَرَّتْ ساجِدَةً لعَظَمَتكَ؟ أَوْ تُخْرِسُ أَلْسِنَةً نَطَقَتْ بِالثَّنآءِ عَلَ مَجْدِكَ وَجَلالَتكَ؟ أَوْ تَطْبَعُ عَلَ قُلُوب انْطَوَتْ عَل محَبَّتكَ؟ أَوْ تُصِمُّه أَسْماعاً تَلَذَّذَتْ بسَماعِ ذِكْرِكَ في إرادَتكَ؟ أَوْ تَغُلُّه أَكُفّاً رَفَعَتْهَا الآمالُ إلَيْكَ رَجآءَرَأْفَتكَ؟ أَوْ تُعاقِبُ أَبْداناً عَمِلَتْ بِطاعَتكَ حَتَّى نَحِلَتْ فِي مُجاهَدَتكَ، أَوْ تُعَذِّبُ أَرْجُلاً سَعَتْ فِي عِبادَتكَ))[٨٤].

النص المتقدم ينبيء بزخم دلالي يمكن وصفه بالممتع الفاعل، ذلك الإمتاع نستشعره من تراكم المعنى الكنائي المستتر وراء ألفاظه، ومما يلوح به ذلك الاستتار من محفز ذهني مغر، يجعلنا –بفعل التطلع– نبحث لمعرفة المعنى المراد. أما الفاعلية فهي متأتية من قيمة الاشتغال الإضافية المتولدة من توسل أسلوب الاستفهام في البناء التركيبي للنص المتضمن المعنى الكنائي وما يرافقه من رغبة في الإخبار. فالإمام زين العابدين عليه السلام كنى عن الخزي والخذلان والخسران يوم القيامة باسوداد الوجه ،وكنى عن السكوت والعجز عن النطق بالخرس. وكنى عن الحرمان من سماع لذيذ الذكر بالصمم. أما قوله عليه السلام ((أَوْ تُعَذِّبُ أَرْجُلاً سَعَتْ فِي عِبادَتكَ)) فالسعي هنا ليس بمعنى المشي (المسير) وإنما السعي والطلب لفعل الخير قولا وعملا.

يرى الباحث أن تقديم المعنى الكنائي بهذه الطريقة جرى بقصدية باعثها توظيف الدلالة توظيفا فكريا ونفسيا. فالتوظيف الفكري يتحقق بحمل المتلقي على التفكر بعاقبة الأمور وما تؤول إليه حال العبد –إن خيرا وإن شرا– والتوظيف النفسي ينكشف بشيوع الأمل والرجاء في نفس المتلقي ومن ثم الاطمئنان بعدماسوداد وجه من خرّ ساجدا لله

تعالى، أو الاطمئنان لمن عمل بما حوته مضامين المعاني الكنائية المتقدمة، ذلك الاطمئنان مبعثه الاستفهام الذي خرج عن حقيقته لغرض مجازي.

هناك إذا تشارك وظيفي (تركيبي – دلالي) مدعوم برغبة في التواصل عن طريق التنغيم الإيقاعي (عظمتك، جلالتك، محبتك، إرادتك) هذا التشارك حقق خصوصية في أسلبة الصورة الكنائية.

وجاء (دعاء يوم الاثنين) حاملا لصورة كنائية أخرى. تلك المتحققة في قول الإمام زين العابدين عليه السلام: ((كَلَّتِ اللْسُنُ عَنْ غايَةِ صِفَتِه وَانْحَسَرَتِ الْعُقُولُ عَنْ كُنْهِ مَعْرِفَتِه وَتَواضَعَتِ الْجَبابِرَةُ لِهَيْبَتِه وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِخَشْيَتِه وَانْقَادَ كُلُّه عَظِيم لعَظَمَتِه))[٨٥]. فالإمام زين العابدين عليه السلام كنى عن الإعياء والثقل والتعب من الوصول إلى منتهى لوصف الله تبارك وتعالى أو الوقوف عند مدى محدد لذلك ،فكنى عن ذلك بقوله ((كَلَّتِ اللْسُنُ)) وهي ولا شك إشارة إلى عجز أصحابها ،ومثل ذلك قوله عليه السلام ((وَانْحَسَرَتِ الْعُقُولُ)) فكنى عن إعياء العقول وانصرافها عجزا عن معرفة غاية معرفة الله أو وقتها ووجهتها. وكنى عن الخضوع والتذلل بقوله ((وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِخَشْيَتِه)).

وقد حملت ألفاظ النص المتقدم على الرغم من تركيبها المختزل زخما دلاليا واضحا بعدما شكل المعنى الكنائي بؤرة الارتكاز له. ذلك الزخم الدلالي مبعثه مصدران ،أولهما: التكرار الدلالي الذي حملته فقرات المقطع المقصود والقائم في الأصل على تكرار هيكلي (بنائي) مما أنتج (التفاعل الدلالي النحوي)[٨٦]. وثانيهما: قصدية الإتيان بالأفعال بالزمن الماضي (كلت، انحسرت، تواضعت، عنت) مماوفرت فرصة للشرْكَة بين الفضاء المعجمي والفضاء السياقي وما يترشح عن هذهالشركة في إبراز (العلاقات المدارية)[٨٧] ودورها في الإنتاج الدلالي.

واعتماد آلية الزمن الماضي نسجت خيطا ترابطيا أسهم في إنتاج مفهوم (مشفر) فحواه يدور حول فكرة مفادها أن الأمر–الحدث في موضع الشاهد– مقطوع به أو مفروغ منه

وهو مما لا يمكن تحقيقه أو المحاولة في ذلك. وإن اختيار الفاعل بصيغة الجمع في (الألسن، العقول، الوجوه،...) يبرز الفضاء الصرفي فضلا عن ما يشي به ضمنا بشمولية العجز والقصور والمحدودية الذي يوازيه بالمقابل طَول الله وعظمته وعلو شأنه تبارك وتعالى الذي (كلت الألسن عن غاية صفته، وانحسرت العقول عن.... الشاهد.)

وثمة شيء آخر أود التنويه بضرورة الوقوف عنده. ذلك ما سأسميه بـ(المفارقة الأدائية) القائمة على الإسناد الفني، أو المنتجة من فنية الإسناد التركيبي والتي تتمظهر ذهنيا بعد رصد العلاقة السياقية ومقارنتها بالعلاقة الوضعية (المرجعية) .وللمتلقي أن يتعرف معالم (المفارقة الأدائية) من طريق الاستحضار الذهني لصورتي المعنى الكنائي المتوافر في النص المقصود، فمعروف أن الوظيفة الرئيسة للّسان هي النطق، وأنها تتم بسهولة ومرونة ودون أي جهد يذكر، ولكنها -وهي على الوصف الذي تقدم- تتعثر، فاللسان يثقل ويكل عن أداء مهمته السهلة عندما يريد محاولا القول لبلوغ المنتهى لصفات الله عز شأنه، وهذا التعارض بين الوظيفة الرئيسة وبين ما آل إليه عمل اللسان شكل بحكم العلاقات المعنوية - الدلالية شكل (مفارقة أدائية)، وكذلك الحال للعقل الذي خُص بالتفكر والتأمل والتدبر ،ووظيفة العقل نَصِفها -تجوزا- بالامتدادية أو التواصلية، وهو على الرغم من ذلك تراجع وانسحب عن أداء وظيفته، انحسر عن معرفة الله ومنتهاها، وهذا التقابل بينالعمل الأصلي للعقل وبين ما آل إليه أنتج ما سميته (المفارقة الأدائية) وقيمة المفارقةالأدائية تتحدد بمقدار الزخم الدلالي للمعنى الكنائي، فهي تتناسب طرديا والزخم الدلالي المتحقق.

نخلص مما تقدم عرضه أن أسلوبية النص السجادي شكّلت علامة فارقة في نسيجه اللغوي وعلاماته الجمالية، فجاء موسوما بالإيحائية المتنامية، فضلا عن إثارته للمتلقي معرفيا بحمله على التأمل والمساءلة، ومن ثم اندماجه لا شعوريا مع النص اندماجا فكريا ووجدانيا، فقد جاء النص السجادي مستوعبا للواقع المعيش بمقتضياته، ومعبرا عن حاجات روحية

وفكرية لازمة. وذلك كلّه قام بفعل وعي المنتج وثرائه المعرفي والروحي الذي أضفى الفضيلة على الصيغ المعجمية والأساليب اللغوية، فأنتج نصا إبداعيا فارضا لحضوره، ومتحديا بخلوده عاملي الزمان والمكان. نصا تغذّى صاحبه من مدينة العلم ومعلّمها النبي الأكرم محمد الأمين صلى الله عليه وآله وسلم ورفد من أبوابها كرام المنهل أبيه الحسين وجدّه سيد البلغاء والمتكلمين علي بن أبي طالب أمير المؤمنين عليه السلام، فكان نصه عليه السلام نابضا بروح القرآن ومصداقا لسحر البيان.

الهوامش

١. الشورى: ٢٣.
٢. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم: ١٣/ ١٢.
٣. ينظر: تحاليل أسلوبية، محمد الهادي الطرابلسي: ١١٦.
٤. ينظر: الإمام زين العابدين عليه السلام القائد. الداعية. الإنسان، د. محمد حسين الصغير: ١٨ -١٦.
٥. ينظر: الصحيفة السجادية الكاملة ورسالة الحقوق: ١٣-١٢.
٦. ينظر: الإمام زين العابدين عليه السلام القائد. الداعية. الإنسان: ١٨.
٧. م. ن: ٨٧.
٨. ينظر: الإمام زين العابدين عليه السلام القائد. الداعية. الإنسان: ٢١-٢٠.
٩. أصل الأجناس الأدبية (مقال)، تزفتان تودوروف، ت: محمد برّادة، الثقافة الأجنبية: ٤٨.
١٠. الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، د. مجيد عبد الحميد ناجي: ٢٤١.
١١. ينظر: في ظلال الصحيفة السجادية، الشيخ محمد جواد مغنية: ٤١.
١٢. الذاريات: ٥٦.
١٣. ينظر: الإسلام والأدب، د. محمود البستاني: ١٨-١٧.
١٤. ينظر: نظرية النقد العربي وتطورها إلى عصرنا، محيي الدين صبحي: ١٩٨.
١٥. ينظر: في ظلال الصحيفة السجادية: ٤٢.
١٦. ينظر: علم اللغة العام، فرديناند دي سوسير: ٣٣.
١٧. جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب د. ماهر مهدي هلال: ٣١٠.
١٨. الصحيفة السجادية الكاملة، دار الكتب العلمية، بغداد، د. ت: ٢٠٥-٢٠٤.
١٩. الإسلام والأدب: ١٢٩.
٢٠. ينظر: علم الأسلوب- مبادؤه وإجراءاته، د. صلاح فضل: ٢٣٩.
٢١. الفعل متعدّ وله القدرة على نصب مفعولين.
٢٢. الصحيفة السجادية الكاملة: ٢٢٦-٢٢٥.
٢٣. ينظر: النقد التطبيقي التحليلي- مقدمة لدراسة الأدب وعناصره في ضوء المناهج النقدية الحديثة، د. عدنان خالد عبد الله: ٢٤.
٢٤. القراءة وتوليد الدلالة- تغيير عاداتنا في قراءة النص الأدبي، د. حميد لحمداني: ١١٧.
٢٥. ينظر: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق - دراسة تطبيقية على السور المكية، د. صبحي إبراهيم الفقي: ٢/ ٢١.
٢٦. الصحيفة السجادية الكاملة: ٢١٦-٢١٤.
٢٧. ينظر: جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب: ٢٤٤.
٢٨. أصول الكافي: ٤٨٢، وينظر: تلخيص الرياض: ٢٨٠.

٢٩.الصحيفة السجادية الكاملة:٢١٣.
٣٠.م.ن:٢٠٣.
٣١.م.ن:٢٠٥.
٣٢.م.ن:٢٠٧.
٣٣.م.ن:٢٠٩
٣٤.م.ن:٢١١-٢١٠.
٣٥.م.ن: ٢١٢.
٣٦.تحولات النص- بحوت ومقالات في النقد الأدبي: ١٢٠.
٣٧.الجمعة:٩.
٣٨.ينظر: نظرية التلقي- أصول وتطبيقات: ٦٧.
٣٩.ينظر: علم الأسلوب- مفاهيم وتطبيقات، د. محمد كريم الكواز: ١٥٣.
٤٠.علم الأسلوب- مفاهيم وتطبيقات: ١٥٦.
٤١.تلخيص الرياض: ١/ ٢٤.
٤٢.الصحيفة السجادية الكاملة: ٢٢٠.
٤٣.ينظر: الأسلوبية- مدخل نظري ودراسة تطبيقية، د. فتح الله احمد سليمان: ٦٤.
٤٤.الرعد:٢٨.
٤٥.ينظر: قراءات أسلوبية في الشعر الحديث، د. محمد عبد المطلب: ٥٧.
٤٦.ينظر: قضايا الشعرية، رومان ياكبسون، تر: محمد الولي و مبارك حنون:٥٥.
٤٧.الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية- قراءة نقدية لنموذج إنساني معاصر، د. عبد الله محمد الغذامي: ٣٢٤.
٤٨.ينظر: الشاعر العربي الحديث ناقداً (مقال)، ماجد صالح السامرائي، ضمن: الشعر العربي عند نهايات القرن العشرين (مهرجان المربد الشعري التاسع:) ٣ / ١١٠.
٤٩.ينظر: بنية اللغة الشعرية، جان كوهن، تر: محمد الولي ومحمد العمري: ١٥.
٥٠.النحو والدلالة- مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي، د. محمد حماسة: ١٧١.
٥١.معايير تحليل الأسلوب، ميكائيل ريفاتير:٧١.
٥٢.ينظر: الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدي:٣٥.
٥٣.هود:٧.
٥٤.الفرقان:٥٩.
(ينظر: تاريخ الطبري- تاريخ الأمم والملوك، ابن جرير الطبري ،١/ ١٤.
٥٥.ينظر: ترتيب كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي: ٢٩٧/ ١ مادة (جعل).
٥٦.الصحيفة السجادية الكاملة: ٢١٢.

٥٧.م.ن: ٢٣٣-٢٣٢.
٥٨.الصحيفة السجادية الكاملة: ٢٢٨-٢٢٧.
٥٩.م.ن: ٢٠٥.
٦٠.الصحيفة السجادية الكاملة: ٢٠٧.
٦١.م. ن: ٢٠٩.
٦٢.م.ن: ٢١٠.
٦٣.م. ن: ٢١٢.
٦٤.الأسلوبية - مدخل نظري ودراسة تطبيقية:٢٦.
٦٥.الإسلام والأدب: ١٠٩.
٦٦.دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني: ١١٢.
٦٧.الصحيفة السجادية الكاملة: ٢٠٩.
٦٨.الصحيفة السجادية الكاملة: ٢١٢.
٦٩.دلائل الإعجاز: ١١٦.
٧٠.م. ن: ٢٤٢.
٧١.قراءات أسلوبية في الشعر الحديث: ١٤٣.
٧٢.الصحيفة السجادية الكاملة: ٢٣٠.
٧٣.ينظر: قضايا الشعرية، رومان ياكبسون: ٧٣.
٧٤.الصحيفة السجادية الكاملة: ٢٢١.
٧٥.م.ن: ٢٣١.
٧٦.الأسلوب والأسلوبية، بيير جيرو:٢٦.
٧٧.ينظر: بنية اللغة الشعرية: ١٠٩.
٧٨.ينظر: كتاب أرسطوطاليس في الشعر، تح: شكري محمد عياد: ١٢٨.
٧٩.الصحيفة السجادية الكاملة: ٢٣٧.
٨٠.ينظر: علم الدلالة- أصوله ومباحثه في التراث العربي، منقور عبد الجليل: ١٤٩.
٨١.ينظر:دينامية النص- تنظير وإنجاز: ١٥١.
٨٢.الصحيفة السجادية الكاملة: ٢١٥-٢١٤.
٨٣.ينظر: دينامية النص- تنظير وإنجاز: ٢٧.
٨٤.الصحيفة السجادية الكاملة:٢١٩.
٨٥.م. ن: ٢٠٤.
٨٦.ينظر: النحو والدلالة- مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي: ١٦٦.
٨٧.م. ن: ١٠٨ في الهامش.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.
١.الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية د. مجيد عبد الحميد ناجي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ،بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٤.
٢.الإسلام والأدب، د. محمود البستاني ،مطبعة ستارة، قم، ط١، ١٤٢٢هـ.ق.
٣.الأسلوب والأسلوبية، بييرجيرو ،ت: منذر عياشي، مركز الإنماء القومي بيروت، لبنان.
٤.الأسلوبية، مدخل نظري ودراسة تطبيقية، د. فتح الله احمد سليمان، الدار الفنية للنشروالتوزيع، القاهرة ١٩٩٠.
٥.الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، ليبيا ،ط١، د.ت.
٦.أصل الأجناس الأدبية (مقال)، تزفتان تودوروف، ت: محمد برّادة، الثقافة
٧. أصول الكافي (في ضمن الكتب الأربعة) المقتطف من رياض السالكين في شرح محمد بن يعقوب الكليني (ت ٩٢٣هـ) صحيفة سيد الساجدين عليه السلام، أبو الفضل دار الأسوة للطباعة والنشر، إيران، ط٤، الحسيني، المطبعة العلمية ،١٨٣١هـ.
٨.الإمام زين العابدين عليه السلام القائد. الداعية .الإنسان، د. محمد حسين علي الصغير ،الغدير للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٩.
٩.بنية اللغة الشعرية، جان كوهن، ت: محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٨٦.
١٠.تاريخ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) راجعه وقدم له: نواف الجراح، دار صادر، بيروت ،ط١، ٢٠٠٣.
١١.تحاليل أسلوبية، محمد الهادي الطرابلسي ،دار الجنوب للنشر، تونس ،١٩٩٢.
١٢.تحولات النص، بحوث ومقالات في النقد الأدبي د. إبراهيم خليل، منشورات وزارة الثقافة، عمان، المملكة الأردنية الهاشمية، ط١، ١٩٩٩.
١٣.ترتيب كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ) تح: د. مهدي المخزومي و د. إبراهيم السامرائي، ط١، ١٤١٤هـ.ق.
١٤.التشريحية، قراءة نقدية لنموذج إنساني معاصر د. عبد الله محمد الغذامي، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ط١، ١٩٨٥.
١٥.الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى الأجنبية، بغداد، ع١، س٢، ١٩٨٢.
١٦.جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب د. ماهر مهدي هلال، دار الرشيد للنشر ،الجمهورية العراقية ١٩٨٠.
١٧.دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) علق حواشيه محمد رشيد رضا دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت ،لبنان ١٩٧٨.
١٨.دينامية النص، تنظير وإنجاز، د. محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، بيروت ،لبنان، والدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٨٧.
١٩.الشاعر العربي الحديث ناقداً (مقال) ماجد صالح السامرائي، ضمن الشعر العربي عند نهايات القرن العشرين (مهرجان المربد الشعري التاسع)

دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٩.
٢٠.شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزلي (ت٦٥٦هـ) تح: محمد أبو الفضل إبراهيم دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٨٧.
٢١.الصحيفة السجادية الكاملة، دار الكتب العلمية، بغداد، د. ت. الصحيفة السجادية الكاملة ورسالة الحقوق من أدعية الإمام زين العابدين عليه السلام تقديم: محمد باقر الصدر دار القارئ للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٤م
٢٢.علم الأسلوب،مبادئه وإجراءاته، د.صلاح فضل،مؤسسة مختار،القاهرة ،١٩٩٢.
٢٣.علم الأسلوب، مفاهيم وتطبيقات، د .محمد كريم الكواز، منشورات جامعة السابع من أبريل، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى، ط١، .هـ١٤٢٦
٢٤.علم الدلالة، أصوله ومباحثه في التراث العربي، منقور عبد الجليل، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ،١٩٨٣.
٢٥.علم اللغة العام، فرديناند دي سوسير ،ت: د. يوئيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية، بغداد ١٩٨٥.
٢٦.علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق ،دراسة تطبيقية على السور المكية، د .صبحي إبراهيم الفقي، دار قباء، القاهرة ،ط١، ٢٠٠٠.
٢٧.في ظلال الصحيفة السجادية، محمد جواد مغنية، تح: سامي الغريري، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي، قم، ط١، ٢٠٠٢.
٢٨.قراءات أسلوبية في الشعر الحديث، د .محمد عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ،١٩٩٥.
٢٩.القراءة وتوليد الدلالة، تغيير عاداتنا في قراءة النص الأدبي، د. حميد لحمداني ،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ،المغرب، ط١، ٢٠٠٣.
٣٠.قضايا الشعرية، رومان ياكبسون، ت: محمد الولي و مبارك حنون، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٨.
٣١.كتاب أرسطو طاليس في الشعر، تح: شكري محمد عياد، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٧.
٣٢.معايير تحليل الأسلوب ميكائيل ريفاتير ،ت: د.حميد لحمداني، منشورات دراسات سال، دار النجاح الجديدة، البيضاء ،ط١، ١٩٨٣.
٣٣.النحو والدلالة، مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي، د. محمد حماسة، كلية دار العلوم جامعة القاهرة، ط١، ١٩٨٣.
٣٤.نظرية النقد العربي وتطورها إلى عصرنا ،الجزء الثاني من نظرية الشعر العربي، محيي الدين صبحي، الدار العربية للكتاب ،ليبيا وتونس ،١٩٨٤.
٣٥.النقد التطبيقي التحليلي، مقدمة لدراسة الأدب وعناصره في ضوء المناهج النقدية الحديثة، د. عدنان خالد عبد الله، دار الشؤون الثفافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٨٦.

استهلالات مطالع ادعية الصحيفة السجادية للامام زين العابدين عليه السلام دراسة تحليلية

م.د. حيدر محمود شاكر الجديع

جامعة البصرة

كلية التربية للعلوم الانسانية

قسم اللغة العربية

ملخص البحث

إنّ لكلّ نصٍّ بناءَه الخاصّ الذي ينماز بهِ عن سائر النّصوص الإبداعية المُنتجة وضعيّاً أو إلَهياً، من حيث بناء موضوعه وعتباته وتقسيماته وفقره، ومن حيث مرجعياته الثقافية التي يحملها، ومن حيث لغته ومستوياتها وتركيبه وأساليبه المتلونة مع اندماج مناسبة حال موضوعة حدثه.

ويقوى نصّ المُعبِّر المُنشئ كلّما ازداد وعيهُ في معرفة مستوى المَخاطَب، وكيف به وهو يخاطب ربّ الأرباب، الله جل جلاله؟ خالق كلّ شيء، وبديع السموات والأرض، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ! وإذا كان المُخاطَب هو الله فكيف يبدأ المُتكلّم – المُنشئ الخِطابَ معهُ ؟!. من هنا تتجلّى أهمية موضوعة عتبة (اسْتِهلَالِ مَطَالِعِ أَدْعِيَةِ الصَّحِيْفَةِ السَّجَّادِيَّةِ) التي تعالجها الدراسة المعتمدة منهج التحليل في كشف أسرار بنية الاستهلال في الأدعية السجّادية، وما تحويه من عناصر نصيّة تؤسّس علاقات أواصر الخطاب، واندماجه وانسجامه مع الذات الإلهية المقدّسة.

مقدمة

يكتنز الاستهلال في جذره المعجميّ، دلالات عدة منها «.. الهَلَلُ: أوّل المطر .

يقال: استهلَّت السماء وذلك أوّل مطرها. ويقال: هو صوت وقعه. واستهلّ الصبيُّ بالبُكاء: رفع صوته وصاح عند الولادة. وكلّ شيء ارتفع صوته فقد استهلَّ..

وأهلَّ المُحرِم بالحجّ يُهلُّ إهلالاً إذا لبَّى ورفع صوته. والمُهَلُّ، بضم الميم: موضع الإهْلال، وهو الميقات الذي يُحرمون منه، ويقع الزمان والمصدر.. قال النابغة يذكر دُرّة أخرجها غوّاصها من البحر:

أو دُرّة صَدَفيّة غوّاصُها بهِجٌ متى يَرها يُلُّ ويَسْجُد

يعني بإهلالهِ رفعه صوتَه بالدعاء والحمد لله إذا رآها؛.. وتهلَّل وجهه فرحاً: أشرق واستهلَّ. وفي حديث (السيّدة) فاطمة عليها السلام: فلما رآها استبشر وتهلَّل وجهُه أي استنار وظهرت عليه أَمارات السرور.. والهلِّة: من الفرح والاستهلال»...[1].

وعلى الاستناد إلى هذه الدلالات عُيّنت وظيفة الاستهلال المهمّة في بُعْده الفنّي للنّص الأدبيّ، بأنّه: الأساس في استقطاب ذهن المتلقّي –القارئ أو السامع أو المشاهد– وشدّ انتباهه إلى الموضوع عَبْر الاشارة إليه بتكثيف موجّز عمّا يضمّه النّص، فمن دون تحقق انتباهه به تضيع الغاية وينتهي المطلب[2]. إذْ يأخذ التصدير به منزلة «الإشارة والإيذان بالغرض المقصود.. والفائدة منه إعداد (المتلقين) وتهيئتهم إلى التوجه نحو الغرض»[3]، ومرتكز وظيفة الاستهلال في النّص الأدبي كونه قطب انفلاق الأفكار من حيث اللحظة التي يبدأ بها المنشئ بنسج نصّه وصياغته، فيحمّله ضمناً تأريخياً وتقليداً ما، فلا يخرج به عن أعراف بناء ولا عن طريقة قول، ويقترب في حالات ما، إلى المبدأ الشفاهي في القول والعمل[4]، ولقد أكّد القدماء العرب من البلاغيين والنقاد باهتمامهم بالابتداءات والافتتاحات، إذْ كان أكثر اشتغالهم على قوة التأثير النفسيّ التي تستهلّ بها مبادئ الطوالع الجيدة، لأن تحسينها من دلائل البيان والإعجاز عندهم، إذ إنّ النصّ نسيج يرتبط بالبداية

الاستهلالية بخيوط ممتدة مشدود إليها[٥]، وكذلك فإنّ حسن الافتتاح يأتي من «ثلاثة جوانب: جمال المعنى؛ جمال الألفاظ؛ مع مراعاة مقتضى حال (المتلقي = المخاطَب)»[٦].

ويعدّ نصّ الإمام السجّاد عليه السلام من نصوص عصر الاستشهاد النَّحوي ،والمتبحّر في محيطات الصحيفة السجّادية بين الخفاء والتجلي يرصد جمال بناء نصّها وسبكه، وقوة معناه، ونغم إيقاع فاصلاته، وتناسب فقرات موضوعاته، وإنّ أوّل ما يقع عليه نظر المتلقّي في أدعيتها، هو مطلع الدعاء -المقطع الأوّل وما يُفتتح بمفردته الندائية الأُولى- الذي يستهل الإمام عليه السلام به خطابه مع الله عز وجل ، ومن ثَمَّ يلمح أثر موضوعة دعائه فيه، وبعده تطربه موسيقى فاصلاته وجرس إيقاعها، فهو يمثّل مفتاح خطابهِ وسؤلهِ وطلبهِ ونداءهِ ومناجاتهِ معه، وحوائجِه منه عز وجل.

وعلى أساس ما تقدّم نلحظ الإمام عليّ السجّاد عليه السلام في أدعية صحيفته المباركة ،يعتمد في استهلال مطالع بعضها أسلوب (الحمد لله)، وفي بعضها الآخر التعبير الدُّعائيّ (اللَّهمَّ)، وتارة يجمع بينها وبين أداة نداء البعيد (اللَّهمَّ يا مَن)، و(اللَّهمَّ يا كافي)، وفي أُخَر تأتي على أصلها (يا اللهُ)، ومنفردة (يا مَن)، و(يا فارج)، وفي أدعيةٍ أُخَر أدوات التنزيه والألوهيّة والربوبيّة (سبحانَهُ)، و(إلَهي)، و(رَبِّن) وهكذا في سائر الاستهلال[٧]، وما يصاحبه من أسلوب مطلع كلّ دعاء، إذْ لم يكن اعتماد الإمام عليه السلام هذا التعدد في الاستهلال جزافاً ولا اعتباطاً من دون تخطيط علم ،ومعرفة، ووعي، وقصد، وهذا ما تراه الدارسة في معالجتها.!

الدراسة التحليلية ومعالجتها

مفردة استهلال المطْلع وموضوعة الدُّعاء

إنّ المنشئ الأديب المبدع ينشئ نصّه بوعي وعلم ومعرفة بجوانبه كلّها ،ومقارباته جلّها، من حيث المناسبةُ والموضوعُ وارتباطُهما بالمخاطَب المتلقّي المعني بالنّص الموجّه إليه، هذه العملية وجدليتها بين المبدع والمتلقي (الإنسان) بأصنافه وطبقاته ومستوياته كلّها، أما إذا كان المبدع (الإمام المعصوم)، الذي عرف في عصره بـ(زين العابدين)، و(سيد الساجدين)، و(إمام الزاهدين)، و(عالم أهل زمانه)[٨]، والمُرسَل المُوجَّه إليه نداء الدعاء وطلبه هو (الله) تعالى فمعادلة بناء النّص وحساباتها الفكرية والروحية والنفسية، تكون في ميزان تكويني نصيّ آخر.

من هنا فالملاحظ أنّ استهلال مقطع المطلع ومفردته الافتتاحية (الكلمة المفتاح) لهما علاقة بنفسية الإمام السجّاد عليه السلام حال دعائه الله تعالى، متزامنة مع الموضوعة التي حملت تكثيف المناسبة كلّها.

لهذا نجد الإمام عليه السلام في موضوعات الأدعية المتعلقة بـ (التَّحميد للهِ عزوجل)، و(الصَّلاة على مُحمَّدٍ وآلِه)، و(الصَّباح والمساء)، و(الرِّضا بالقضاء)، و(يوم عرفة) ،يستهلَّها بأسلوب (الحَمْد لله)[٩]، وهو أسلوبٌ لا يخرج عن مرجعيته القرآنية في استهلال السُّور وفواتحها بـ (الْحَمْد للَّهِ)[١٠]، والأدعية المحمّديّة العَلَويّة الحُسَيْنيّة ،وإنّما كان الإمام السجاد «يبدأ بالتحميد لله عز وجل والثناء عليه اقتداء بكتاب الله تعالى، وعملاً بما اشتهر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ((كلّ أمر ذي بالٍ لم يبدأ فيه بالحمد فهو أقطع))[١١]، أي مقطوع البركة.. وروي عن أبي الله عليه السلام أنّه قال: ((كلّ دعاء لا يكون قبله تميد فهو أبتر، إنّهما التحميد ثمّ الدعاء))[١٢]»[١٣]. وهو ما يلتفت إليه المتلقي المطّلع المتفحّص.

ومن نماذج التَّحليل، استهلال مطلع دعائه (التَّحْميد للهِ عز وجل): ((الحَمْدُ لِلهِ الاَوَّلِ بِلاْ أَوَّلٍ كَانَ قَبْلَهُ، وَالآخِرِ بِلاْ آخِرٍ يَكُوْنُ بَعْدَهُ، الَّذِي قَصُرَتْ عَنْ رُؤْيَتِهِ أَبْصَارُ النَّاظِرِيْنَ،

وَعَجَزَتْ عَنْ نَعْتِهِ أَوْهَامُ الوَاصِفِيْنَ))[١٤].

لقد استهل الإمام السجاد عليه السلام صحيفته كلّها بمفردة (الحَمْدُ للهِ) فضلاً عن استهلال دعائه الأوّل الذي جاءت موضوعته خاصّةً بـ (التَّحميد للهِ عز وجل) في الوقت نفسه، إذْ تطابقت موضوعة دعائه مع مفردة الاستهلال تطابقاً كاملاً، وتناصّاً وتداخلاً نصّيًّا قرآنيّاً جليّاً بديعاً في فاتحة صحيفته المباركة زيادة على الأدعية التي ذكرت آنفاً، وهنا أراد الإمام عليه السلام بـ (الحَمْد للهِ عز وجل) أن يبيّن الحمد المطلق لله وحده ولا يشترك فيه معه شيء أبداً! وهذا ما جعل (الحَمْد للهِ) مختصّاً به عليه السلام، فأورد الإمام «الحمد معرفة في جملة اسمية ليدلّ على ثبات الحمد لهُ»[١٥]، لأنّ جنس «الحَمْد وكلّ حَمْدٍ وجميع المحامد لله سبحانه بالحقيقة، إذْ ما من خير بالذات أو خير بالعرض في نظام الوجود طولاً أو عرضاً إلّا وهو مستند إليه سبحانه بوسط أو لا بوسط .

فقد جعل اختصاص الجنس دليلاً على اختصاص جميع الأفراد، سلوكاً لطريقة البرهان، وذلك بابٌ من فنّ البلاغة، إذ معناه: ذات كلّ متقرّر ووجود كلّ موجود للهِ، كما قال جلّ سلطانه [لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ][١٦]، إذْ حقيقة الحمد هو الوصف بالجميل، وكلّ تقرّر ووجود ينطق بلسان طباع الإمكان أن مفيضه ومبدعه هو الحيّ القيّوم الحقّ المتقرّر بنفسه الموجود بذاته. فتكون هويّة كلّ ذي هويّة حمد لله سبحانه»[١٧]. وما يعضّد هذه الرؤية هو أنّ «اللام في (للهِ) إمّا للجنس، وإمّا للاستغراق، وهما عند التحقيق متلازمان في إفادة الانحصار، ويجوز كونها للعهد ،والمراد به الحمد الذي حمد به نفسه، لأنّ الحمد هو إظهار صفات الكمال لأحد، وقد بسط بساط الوجود على ممكنات لا تعد ولا تحصى، ووضع عليه موائد كرمه التي لا تتناهى، فقد كشف عن صفات كماله بدلالات قطعية تفصيلية غير متناهية، فإنّ كلّ ذرة من ذرات الوجود تدل عليه، ولا يتصور مثل هذه الدلالات في الألفاظ والعبارات»[١٨].

لذلك دعم الإمام عليه السلام مفردة استهلاله بقوله: (الاَوَّلِ بلَا أَوَّلٍ كَانَ قَبْلَهُ))، و ((وَالآخِرِ

بلَاْ آخرٍ يَكُوْنُ بَعْدَهُ))، ونتيجة المطلب الدعائي من مستوى أدب الإمام السجّاد عليه السلام لله عز وجل من حيث مفردة الاستهلال مع الموضوعة تكون في تعبيره؛ ((قَصُرَتْ عَنْ رُؤْيَتِهِ أَبْصَارُ النَّاظِرِيْنَ))، و((عَجَزَتْ عَنْ نَعْتِهِ أَوْهَامُ الوَاصِفِيْنَ))، وهذا ما يثبت عمق اندماجه وعرفانه بالله عز وجل في دعائه وسائر أدعية صحيفته .ومنها أُنموذج آخر دعاؤه عند الصَّباح والمَساء: ((الحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ بقُوَّتِه، وَمَيَّزَ بَيْنَهُمَا بقُدْرَتِه، وَجَعَلَ لكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَدّاً مَدُوداً وَأَمَداً مَمْدُوداً، يُوْلِجُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِي صَاحِبِهِ، وَيُوْلِجُ صَاحِبَهُ فِيْهِ بتَقْدِيْرٍ مِنْهُ للْعِبَادِ، فِيْمَا يَغْذُوْهُمْ بِهِ، وَيُنْشِئُهُمْ عَلَيْهِ))[١٩].

وهنا في موضوعة دعائه عند الصّباح والمساء، يستهلّ مطلعه ويفتتحه بمفردة (الحَمْدُ لله) أيضاً، لأنّ مقتضيات دوام الحياة على الإنسانية جمعاء، تكمن في استمرار ظاهرة الصَّباح والمساء فبديمومتهما استمرار الوجود كلّه بتقديرٍ منه عز وجل، وهي من دلائل وجوده العظيم، ومن النِّعَم المُختصّة بالله عز وجل فهو وحده ذو السلطان البارئ المصوّر المحيط بكلّ شيء، القادر على كلّ شيء، فلا يناسب هذا المقام إلّا الاستهلال بمفردة (الحَمْدُ لله) وحده لا شريك له فيه، الذي لا يستحقّه إلّا هو عز وجل. فجاءت أفعال جمل مقطع استهلاله وسببها؛ (خَلَقَ.. بقُوَّتِه)، و(مَيَّز.. بقُدْرَتِه)، و(جَعَلَ.. مَحْدُوداً وَأَمَداً مَمْدُوداً)،) يُوْلِجُ.. بتَقْدِيْرٍ مِنْهُ)، و(يَغْذُوْهُمْ.. بِهِ)، و(وَيُنْشِئُهُمْ.. عَلَيْهِ)، مؤكّدةً ما أراده الإمام السجّاد عليه السلام من مفردته الافتتاحية بـ (الحَمْدُ لله عز وجل)، لذلك نلحظ الإمام عليه السلام ساوى حتى بتوظيف عدد الأفعال الزمنية فانتقى ستةً وزّعها على كفّتين، فقصد بها التعاقب الزمني العادل المتساوي بين الصّباح والمساء، إذْ جاءت كفّة (الثلاثة) الأُولى بصيغة الماضوية: (خَلَقَ – مَيَّز – جَعَلَ)، وكفّة (الثلاثة) الثانية بصيغة المضارعية : (يُوْلِجُ – يَغْذُوْهُمْ – يُنْشِئُهُمْ)، وهذا التقابل الزّمني الذي حملته الكفّتان بين الماضوية والمضارعية يعطي دلالة الحصر الزمني المطلق غير المتناهي لإحاطة الله تعالى وقوّته وقدرته وجعله وربوبيته وإنشائه بكلّ شيء وعلى كلّ شيء ،الذي جذّر سياق الموقف فيه.

أمّا موضوعات الأدعية المرتبطة بـ (الصلاة على حملة العرش) و(الصلاة على مُصدِّقي الرُّسل) و(الاستعاذة) و(الاشتياق) و(اللجوء إلى الله تعالى) و(الاعتراف) و(طلب الحوائج) و(المرض) و(الاستقالة) و(دعائه على الشيطان) و(المحذورات) و(الاستسقاء) و(مكارم الأخلاق) و(إذا أحزنه أمرٌ) و(عند الشدة) و(العافية) و(دعائه لأبويه عليهما السلام) و(دعائه لولْدِه عليه السلام) و(جيرانه وأوليائه) و(دعائه لأهل الثغور) و(التَّفزُّع) و(إذا قُتِّر عليه الرّزق) و(المعونة على قضاء الدَّين) و(التوبة)، و(صلاة الليل) و(الاستخارة) و(إذا ابتلى أو رأى مبتلىً بفضيحةٍ أو بذنبٍ) و(سماع الرَّعد) و(الشُّكر) و(الاعتذار) و(طلب العفو) و(ذكر الموت) و(طلب الستر والوقاية) و(دعائه عند ختمه القرآن) و(وداع شهر رمضان) و(عيد الأضحى والجمعة) و(دعائه بالرَّهْبَة) فإنّ استهلال مطالعها جاء بمفردة نداء(اللَّهُمَّ)[٢٠]. وهذا الاستهلال مولود في رحم الاستهلال القرآنيّ عند قوله تعالى ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢١]، وقوله تعالى ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[٢٢]. إذْ إنّ استهلال هاتين الآيتين الكريمتين بمفردة (اللَّهُمَّ)، المركّز المكثّف بإحاطة الله وقدرته وملكوته وسلطانه بكلّ شيء وعلى كلّ شيء، ضمّ وحَوَى مجمل الموضوعات التي فصّلها الإمام السجّاد عليه السلام في عنوانات أدعيته لكونها نابعةً مشتقَّةً في هذه الدائرة القرآنية دائرة الاعتراف المُطلق في رحاب الدعاء القرآنيّ التي قصدها باستهلاله المبارك، من نماذجها استهلال مطلع دعائه (في الاشتياق لطلب التوبة والمغفرة): ((اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَصَيِّرْنَا إِلَى مَحْبُوبِكَ مِنَ التَّوْبَةِ، وَأَزِلْنَا عَنْ مَكْرُوهِكَ مِنَ الإِصرَارِ، اللَّهُمَّ وَمَتَى وَقَفْنَا بَيْنَ نَقْصَيْنِ فِي دِيْنٍ أَوْ دُنْيَا فَأَوْقِعِ النَّقْصَ بِأسبعهما فَنَاءً، وَاجْعَلِ التَّوْبَةَ فِي أَطْوَلِهِمَا بَقَاءً))[٢٣].

إنّ الاشتياق حاجةٌ من حوائج الإنسان الغريزية الكثيرة المتشعبة والمتفرعة والمتعددة في الحياة التي أَلْهَمَهُ إيّاها الله تعالى، سواء الروحية والقلبية منها، ام ما تعلق بوشائج نفسية في

اللحظة نفسها، وعليه فإنّ الإمام السجّاد جنّد مفردة (اللَّهُمَّ) استهلال موضوعته مفتاحاً لدخول رحاب الاشتياق في روض الحبّ الإلهي عَبْر أبوابه الواسعة الشاسعة التي جعلها نوراً للمُحبين، وأرسلها رحمةً للعالمين، هم أحباؤه ومحبوبوه(مُحَمَّدٌ وَآلُهُ)، لذلك نجده أتبع مفردة استهلاله بالصلاة عليهم (صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ)، لأنّهم أحبُّ خَلْقِهِ إليه، وهذا ما كان له الأثر البالغ في غلبة هذا الأسلوب في الصحيفة كلّها، لأنّه عالمٌ أنّ الدعاء لا يستجاب إلا بهم، والحوائج لا تقضى إلّا عَبْر أبوابهم، والعبد لا تقبل أعماله إلا بطاعتهم وذكرهم أمام محبوبهم الذي لا تأخذه سنةٌ ولا نومٌ وحاشا له ذلك، من هنا فإنَّ أصل(اللَّهُمَّ)؛ «يا اللهُ حذف أداة النِّداء وأتى بالميم المشددة في الآخر عوضاً عنها تعظيماً لاسمه الشريف أن يؤتى بصورة النِّداء، وتفخيماً للفظه وإشعاراً باشتداد المحبّة، فإنّ شدّة الحُبّ كشدّة الغضب تقتضي التشديد في اللفظ»[٢٤].

ونقل عن بعض النحويين قوله: «أصل اللَّهُمَّ: يا اللهُ المطلوب للمهمّ، فحذف حرف النِّداء لدلالة الطلب والإهتمام عليه مع قيامه مقامه، ثُمَّ اقتصر من لفظي الصِّنفتين بأوّل الأوّل وآخر الثاني وأدغم أحدهما في الآخر»[٢٥].

والإمام عليه السلام بمفتاح استهلال اشتياقه هذا وظّف تقابلاً لطيفاً وضدّاً جميلاً، إذْ قابل بين (الصيرورة إلى محبوبه) تعالى، وبين (الإزالة عن مكروهه) سبحانه. وكذا قابل بين (وقوع النقص بالأسرع فناءً – الدِّنين أو الدُّنيا)، وبين (جعل التوبة في الأطول بقاءً – الدِّنين أو الدُّنيا) أيضاً، فجسّد هذا التقابل(مَحْبُوْبكَ – مَكْرُوْهكَ)، و(فَنَاء – بَقَاء)، تشكيلاً روحياً ونفسياً في رحاب روض الاشتياق إلى طلب التوبة والمغفرة عمّق أساس السياق العاطفيّ، معضّداً ومستنداً إلى الأفعال الأمرية التي استعملها الإمام السجّاد عليه السلام في مقام الدعاء؛ (صَيِّرْنَا – أَزِلْنَا – أَوْقِعِ – اجْعَلِ). إذ جاء الفعلان الأوّلان بصيغة الجمع تعظيماً لله في خطابه وطلباً للمغفرة في ساحة رحمته الواسعة باسم الجمع كلّه، لذلك أتى بالفعلين الآخرين بصيغة خطاب الإفراد لأنّ الاشتياق إلى طلب التوبة والمغفرة منه تعالى وحده هو أهلٌ لهما .

ومن نماذجها الأُخَر أيضاً؛ مطلع دعائه (إذا قُتِّرَ عليه الرِّزقُ): ((اللَّهُمَّ إنَّكَ ابْتَلَيْتَنَا فِي أَرْزَاقِنَا بسُوْءِ الظَّنِّ، وَفِي آجَالنَا بطُوْلِ الملأ، حَتَّى الْتَمَسْنَا أَرْزَاقَكَ مِنْ عِنْدِ المَرْزُوْقِيْنَ، وَطَمَعْنَا بِآمَالنَا فِي أَعْمَارِ المُعَمَّرِيْنَ))[٢٦]. وكذلك هنا استهلال الإمام السجّاد عليه السلام مطلع موضوعة دعائه (الرِّزقُ) بمفردة (اللَّهُمَّ)، المختصّة بتجاوبها وتناسبها مع طلب حوائج النِّعَم جميعها، وطلبات الجود والكرم كلّها من الله الكريم أكرم الأكرمين ذي الجود العظيم، الذي لا تنقص خزانه في ساحة جوده وكرمه ،ولا تفنى في أبواب كثرة سائليه! إذْ كشف الإمام عليه السلام عَبْر مفردة استهلاله تداعيي البلاء اللَّذَين يكونان سبباً لوقوع الاقتار، وهما: الأوّل؛ (سُوْءِ الظَّنِّ بأرزاق الله) ،والثاني؛ (طُوْلِ الأَمَلِ بالآجال). ممّا يؤدي بنا إلى التماس أرزاق الله الجواد الكريم من غيره (مِنْ عِنْدِ المَرْزُوْقِيْنَ) الذي رزقهم هو عز وجل، وإلى الطمع في (أَعْمَارِ المُعَمَّرِيْنَ)، وهو واهبها وممدّها ومعمّرها، وواجد الوجود وخالقه، وأزلي الخلود وجاعله. فلا ينسجم مع هذا المقام الاستهلاليّ إلّا مفردة الإستهلال (اللَّهُمَّ) التي تتناغم بمعناها ودلالتها مع موضوعة الدعاء، ولقد تقدّم التحليل في بيان خصائصها الافتتاحية فيما سبق آنفاً.

وأمّا موضوعات الأدعية الخاصّة بـ (دعائه لنفسه وخاصَّتِه) و(دعائه في المُهِمَّات) و(دعائه بخواتيم الخير) و(دعائه في الظُّلَامَات) و(دعائه للعيدين والجمعة) و(دعائه في الإلحاح) و(دعائه في استكشاف الهموم)[٢٧] فقد ارتكز استهلال مطالعها على أسلوب الدعاء بمفردة ياء (يا) الندائية الدالة على أنواع المسافات كلّها قريبها ،ووسطها، وبعيدها، فتارة تأتي على أصل بناء (يا اللهُ)، وأخرى تجيء منفردة بندائها مع المنادى المندوب بـ (يا مَنْ) و(يا فارج) ونحو هذا، ومنها أُنموذج استهلال مطلع دعائه (في استكشاف الهُمُوم:) ((يَا فَارِجَ الْهَمِّ، وَكَاشِفَ الغَمِّ، يَا رَحمَنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَرَحِيْمَهُمَا، صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَافْرُجْ هَمِّي وَاكْشِفْ غَمِّي))[٢٨].

إنّ موضوعة الدعاء تنبئ بطلب دفع الهُموم وإبعادها من خلال استكشافها ،وهو ما يجلي سرّ استهلال الإمام السجّاد عليه السلام فاتحة مطلع دعائه بمفردة أداة ياء (يَا) النِّداء الدّالة على

خطاب البعيد في هذه الحال، وهذا المقام للداعي وهو الإمام عليه السلام لنكتتين مهمتين هما:

الُاولى: تعظيماً لله في موضع أدب خطابه عز وجل من حيث إبعاد وصول الهموم والغموم -لأنها من ملازمات المخلوقين- إلى رحاب الذات المقدّسة وتنزيها.

والثانية: تكمن في تلاؤم توظيف ياء النداء (يَا) مع موضوعة دعائه في دفع تلك الهموم والغموم وإبعادها عنه.

زيادة على هاتين النكتتين فإنّ «الصورة الصوتية لهذه الأداة تتلاءم مع امتداد الصوت ولاسيما أنّ (الياء) وهو حرف [صوت] مدّ ثقيل، و(الألف) وهو حرف [صوت] مدّ خفيف، وبذا ينتقل ثقل المدّ إلى سعة مع استطالة المدّ الخفيف ليكون الصدى مضاعفاً لقيمة الصوت المنتج»[٢٩].

وفي ضوء هذا الارتباط والتلاؤم بين مفردة الاستهلال وموضوعة دعاء الإمام عليه السلام نلمحه ذاكراً مؤكّداً في بداية استهلال مطلع دعائه (يَا فَارِجَ الْهَمِّ) و(كَاشِفَ الغَمِّ)، إذْ أضاف المنادى الذي هو في صيغة اسم الفاعل (فارج) إلى الهمّ، و(كاشف) إلى الغمّ ليعطي دلالة الثبات واليقين في فرج الهمّ وكشف الغمّ منه تعالى عز وجل، ولذلك نلمح في خاتمة نهاية مقطعه الاستهلالي، جاء بفعلي الأمر المماثلين لمادة المنادى (الفارج) و(الكاشف) (افْرُجْ هَمِّي) و(اكْشِفْ غَمِّي) ومِنْ ثَمَّ نسب الهمّ والغمّ إلى نفسه من خلال ياء (المتكلّم) التي تعطي دلالة يقين تحقّق الفرج والكشف، وهي في الوقت نفسه تنسجم وتتداخل مع مفردة الاستهلال ياء (النّداء) من حيث البدء بها، والانتهاء إليها.

في حين نرصد موضوعة دعائه (إذا نَظَرَ إلى الهلال) الذي ينماز عن سائر أدعية الصحيفة[٣٠]، بمفردة استهلاله التنزيه المطلق لله (سُبْحانَهُ) استلهمه الإمام عليه السلام من التوظيف القرآنيّ لتسبيح الله الذي افتتحت سبع سور به، في تنزيه الله من الصاحبة والولد وبراءة لله عز وجل من كل سوء[٣١]؛ بعد إلتفاته من خطاب القمر: ((.. سُبْحانَهُ مَا أَعْجَبَ مَا دَبَّر فِي أَمْرِكَ!، وأَلْطَفَ مَا صَنَعَ فِي شَأْنِكَ!، جَعَلَكَ مِفْتَاحَ شَهْرٍ حَادِثٍ لأَمْرٍ حَادِثٍ))[٣٢].

ومعنى (سُبحان)؛ «التنزيه عن النقائص، فسبحان الله معناه تنزيه الله، كأنّه قيل: أُسبّحه سبحاناً، وأُبرؤه عمّا لا يليق بعزّ جلالهِ براءةً»[٣٣]. وعلى أساس هذا صار التسبيح بـ (سبحان الله) «علماً في الدِّنين على أعلى مراتب التعظيم التي لا يستحقها سواه»[٣٤]. وعليه فلا يجوز «أن يستعمل [سبحان] في غيره تعالى، وإن كان منزّهاً عن النقائص. أنّ التنزيه المستفاد من سبحان الله ثلاثة أنواع: [أ] تنزيه الذات عن نقص الإمكان الذي هو منبع السوء .[ب] وتنزيه الصفات عن وصمة الحدوث، بل عن كونها مغايرة للذات المقدّسة، وزائدة عليها .[جـ] وتنزيه الأفعال عن القبح والعبث، وعن كونها جالبة إليه تعالى نفعاً أو دافعة عنه سبحانه ضرراً كأفعال العباد»[٣٥].

ولم تكن مفردة استهلال الإمام عليه السلام بالتسبيح محض مصادفة، ولا اعتباطاً وجزافاً، وإنّما كان عارفاً بخصوصيته، عالماً أسراره التي منها؛ «جذب الأسماع، لأنّ فيه شاعرية تثير الخيال ليُدرك من خلاله أنّ كلّ ما في السموات وما في الأرض ينزه الله عز وجل، فالتسبيح بالمصدر [سُبحان] يثبت له أصل التسبيح.. [و] هذا المطلع الموحي المختار. يتناول القلوب، فيهزها هزاً، ويأخذها أخذاً، وهو يجول بها في الوجود كله فلا تجد إلّا الله، ولا ترى إلّا الله، ولا تحسّ بغير الله، ولا تعلم لها مهرباً من قدرته ولا مخبأ من علمه، ولا مرجعاً إلّا إليه، ولا متوجهاً إلّا لوجههِ الكريم ،فأيّ مقدّمة يمكنها أن تجذب السامع [أو المطلوب] أكثر من هذا الجذب»[٣٦].

فتوظيف الإمام لمفردة استهلال دعائه (سُبحان) لخصوصيتها المتجاوبة مع موضوعته، إذا نظر إلى الهلال لأنّهُ من دلائل تسبيح الله و تنزيه وقدرته وعظمته ومِنَنِه على العباد كلّهم، والخلائق جميعهم. من هنا جاءت جمل مطلع الاستهلال

تحمل هذه الرؤية في التنزيه؛ (مَا دَبَّرَ فِي أَمْرِكَ!)، (أَلْطَفَ مَا صَنَعَ فِي شَأْنِكَ)، (جَعَلَكَ مِفْتَاحَ شَهْرٍ حَادِثٍ لِأَمْرٍ حَادِثٍ) ويا لجمال هذا التشبيه البديع الذي أطلقه الإمام عليه السلام على القمر عند ولادته هلالاً.

وكذا الحال في موضوعة دعائه (في التّضرع والاستكانة)، وموضوعة دعائه (في دفع كيد الأعداء)، فلقد استهلّهما بمفردة الألوهية والوحدانية (إلَهي)؛ إذْ يدعو الله قائلاً: ((إلَهي أَحمدُكَ وَأَنْتَ للْحَمْدِ أَهْلٌ، عَلَ حُسْنِ صَنيْعِكَ إلَيَّ، وَسُبُوْغِ نَعْمَائكَ عَلَيَّ، وَجَزيْلِ عَطَائكَ عِنْدِي، وَعَلَى مَا فَضَّلْتَني بِهِ مِنْ رَحمتكَ، وَاَسْبَغْتَ عَلَيَّ مِنْ نعْمَتكَ، فَقَدْ اصْطَنَعْتَ عِنْدِي مَا يَعْجزُ عَنْهُ شُكْرِي))[٣٧]. فاستهلال فاتحة مطلع دعائه بمفردة (إلَهي) لها قرارها وشأنها ووقعها في مقام التضرّع والاستكانة لله وحده، وهذا ما أثبتته صيغة خطاب الله بالإفراد (إلَهي) بضمير ياء (المتكلّم)، وليس بصيغة الجمع (إلَهنَا)، لأنّ الإفراد يؤكّد في الوقت نفسه، إخلاص التوجّه والابتهال المطلق منقطع النظير من الإمام السجّاد عليه السلام في ندبة ما يريده في رحاب الذات المقدّسة، لذلك لم يصرّح بأداة النِّداء (يَا) فينادي داعياً (يَا إلَهي)، لأنّهُ قصد بحذفها «استشعاراً لكمال قربه تعالى، وإيثار صيغة الإستقبال [أَحْمَدُكَ] للدلالة على التَّجدّد والاستمرار، ولم يقل (حمدتك) لئلا يتوهم الفراغ منه، ولم يؤكّد الجملة اشعاراً بتقصير حمده»[٣٨].

من هنا انفلق سياق جمل مطلع استهلاله مثبتاً هذه الحقيقة في تضرّع الإمام عليه السلام واستكانته وابتهاله، (أَحْمَدُكَ وَأَنْتَ للْحَمْدِ أَهْلٌ)، (حُسْنِ صَنيْعِكَ إلَيَّ)، (وَسُبُوْغِ نَعْمَائكَ عَلَيَّ)، (جَزيْلِ عَطَائكَ عِنْدِي)، (مَا فَضَّلْتَني بِهِ مِنْ رَحْمَتكَ)، (اَسْبَغْتَ عَلَيَّ مِنْ نعْمَتكَ)، (اصْطَنَعْتَ عِنْدِي مَا يَعْجزُ عَنْهُ شُكْرِي). وذلك لو أنعمنا النظر فنلحظ الكلمة الأخيرة التي تشكّل نسق ما تطابقت به مفردة الاستهلال مع موضوعة دعاء الإمام؛ (أَنْتَ.. أَهْلٌ - إلَيَّ - عَلَيَّ - عِنْدِي–رَحْمَتكَ - نعْمَتكَ - شُكْرِي.)

وكذا مطلع دعائه المبارك (في دفع كيد الأعداء:) (إلَهي هَدَيْتَني فَلَهَوْتُ، وَوَعَظْتَ فَقَسَوْتُ، وَأَبْلَيْتَ الجَميْلَ فَعَصَيْتُ، ثُمَّ عَرَفْتُ مَا أَصْدَرْتَ إذْ عَرَّفْتَنيْهِ، فَاسْتَغْفَرْتُ فَأَقَلْتَ، فَعُدْتُ فَسَتَرْتَ، فَلَكَ إلَهي الْحَمْدُ))[٣٩]. والحال نفسها في هذا الأُنموذج، إذْ إنّ مفردة استهلال هذا المطلع بـ (إلَهي) الدالة على أصل الألوهية ،في موضوعة دعائه لله في دفع كيد الأعداء،

وهنا يريد الإمام عليه السلام أن يجسّد مبدأ التسليم لله وحده لا شريك له، في دفع كيد أعدائه من الجنَّة والنّاس، فيدعو منادياً:

(إلَهِي) ليس لي ملجأٌ إلّا أنت، وليس لي معين وناصرٌ سواك، ولا يدفع كيد أعدائي غيرك، (إلَهِي) فأنت من تستحقّ الألوهية والحمد فرداً صمداً سبحانك، فجاءت مفردات جمل مطلع استهلاله محمّلة بهذا التسليم المطلق لله عز وجل، (هَدَيْتَني–لَهَوْتُ / وَعَظْتَ–قَسَوْتُ / أَبْلَيْتَ–عَصَيْتُ / عَرَفْتُ – مَا أَصْدَرْتَ / اسْتَغْفَرْتُ–أَقَلْتَ / عُدْتُ – سَتَرْتَ)، وعلى أساس هذه الرؤية العرفانية من الإمام عليه السلام التي تطبّق المنهج القرآنيّ المحمّديّ في أدب خطاب الله ودعائه بين يديه، [من عرف نفسه، فقد عرف ربّهُ]، ونسيج بنية المطلع الاستهلالي كلّه، بدءاً من مفردته الافتتاحية المنصهرة في موضوعة دعائه، فإنّ هذه الرؤية كانت حاضرة بنسق الإفراد المتتابع المترادف وسياقه في مفرداته كلّها.

أمّا موضوعة دعائه المتعلّقة بـ (التَّذلُّل للهِ عز وجل)، فقد انماز بمفردة استهلال مطلعه، المنغمسة عمقاً، المنعقدة قلباً، الذائبة عرفاناً بمعناها ودلالتها في الربوبية لله عز وجل عند الإمام السجّاد عليه السلام (رَبِّن)، ولهذا يدعو عليه السلام قائلاً: ((رَبِّ أَفْحَمَتْني ذُنُوْبي، وَانْقَطَعَتْ مَقَالَتي، فَلَا حُجَّةَ لِي، فَأَنَا الَسِيْرُ بِبَلِيَّتِي، المُرْتَهَنُ بعَمَلِي، المُتَرَدِّدُ فِي خَطِيْئَتِي، المُتَحَيِّرُ عَنْ قَصْدِي، المُنْقَطِعُ بِي))[٤٠].

لقد ارتشف الإمام السجّاد في توظيف مفردة استهلاله (رَبِّن) مخصّصاً إيَّاها بموضوعة التَّذلُّل لله عز وجل، من رحيق جملة الدُّعاء القرآنيّ[٤١]، إذ حُذفت أداة النداء (يَا) من جملة (رَبِّن) كما فقدت ياء المتكلّم (ي)، وعوضت عنها بكسرة في الزمن نفسه أيضاً، حتى أنّ باء (ب – رَبِّن) تكفّلت بأداء دور ياء المتكلّم (ي)، وهذا فيه دلالة قرب الله من عبده، وكذا تمايز القرب الإلَهيّ من النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أو من وصيه المعصوم عليه السلام أو من عباده المُخْلَصين، وليكون رَبَّاً للنّاس جميعاً، لأنّ القرب من الله تجلّى واسعاً أقرب من حبل الوريد، بعد الابتلاءات والامتحانات التي مرّ بها المتلقي من الله، والعطاء الذي جاد اللهُ عليه وأكرمه به، لأنّ

التعويض بالكسرة في (رَبِّن) عن الياء (ي) محقّق معنى الرَّبّ الحقّ هنا، هو ليس الأرباب المتفرقين على مستوى فكر الإنسان الجاهل، بل هو رَبٌّ واحدٌ أَحدٌ لا غيره[٤٢]، «كونه منبع الكمالات الفعلية ،ومنطلق تنزّلها»[٤٣]، لذلك فإن مفردة استهلال مطلع دعاء الإمام عليه السلام بـ (رَبِّن) هو تعرّضه؛ «لوصف الربوبية المنبئة عن إفاضة ما فيه صلاح المربوب مع الإضافة إلى ضميره لتحريك سلسلة الإجابة والمبالغة في التَّضرّع والابتهال»[٤٤]. وهذا يكشف دقّة اختيار الإمام لمفردة استهلاله ووضعها في مكانها الذي يحقّق التعانق بأبعاده الدلالية كلّها مع موضوعة الدعاء (التَّذلُّل لله عز وجل)، والتذلل لله تعالى هو تعبيرٌ عن «كمال الخضوع والتواضع له تعالى، وإظهار الذُّل والافتقار إليه، وهو يكون في الجَنان كالاعتقاد بأنّه أقلّ عبادهِ وأفقرهم إليه، وبالأركان كإلصاق الخدّ بالأرض وتعفير الوجه في التراب والرمي بالنظر نحو الأرض وسكون حركات الأطراف، وباللسان كالإقرار والاعتراف بالنطق بما اعتقده من ذُلِّن نفسه وافتقاره وعظيم ما اكتسبه من الخطايا والذنوب، والتضرّع إليه تعالى ومناجاته بالسؤال والدعاء والابتهال إليه في حطّ ذنوبه وغفران خطاياه.. إنّ التذلّل لله تعالى هو قوام العبادة والعبودية وقطبها الذي عليه مدارهما»[٤٥]. حتى أنّنا نرى الإمام السجّاد عليه السلام كيف رصف ألفاظ مطلع الاستهلال بعضها بالآخر؟ وبأيّ نظمٍ وترتيبٍ نَصَّها؟ إذْ جنّدها بصيغة الإفراد الموحي بأشكال التذلّل لله تعالى وبصورهِ جميعها. فكان مفتاح مطلع دعائه الاستهلاليّ إلى الله الرَّبّ العظيم (رَبِّن)، حتى ارتبط بتكوين مقطع المطلع الفنّي والدلاليّ كلّه بـ (رَبِّن)، فتحول صوت النداء هذا من صوت اعتيادي في وجوده اللّغوي إلى صوت موضوعة (التّذلّل لله عز وجل) برمتها في مطلع استهلاله، إن لم يكن صوت الدعاء بمقاطعه كلّها[٤٦].

أثرُ مَوضوعةِ الدُّعاء ومُناسَبتهِ في مَطْلع الاستهلالِ

تَبيّن في موضوعة التحليل السابقة الترابط الحاصل المتحقّق، والعلاقة المتواشجة المتبادلة بين موضوعة الدعاء ومفردة استهلال مطلعه، وما يَبثّانه من تشظّيات دلالية على نسيج بنْية مطلع الاستهلال كلّه، وينكشف هنا -من هذه المعالجة عَبْر إجرائها التحليلي- أثر موضوعة الدعاء ومناسبته في مطلعه المُستَهلّ من حيث معاني السياقات وملازماتها الدلالية التي يضمّنها الإمام عليه السلام في نصّه الافتتاحي بقصديته وإرادته، ومن حيث اختيار المفردات وانتقاؤها -لقد تقدّم الإلماح إليها آنفاً-، فيأتي بها مخصوصةً مختصّةً في صميم موضوعة الدعاء، وفي الزمن نفسه هي تجسّد كمال التأدّب في الخطاب مع الله عز وجل والنداء والدعاء إليه، لما يتطلبه مقتضى الحال والمقام ،بفعل تأثيرات المناسبة فيهما.

وعليه فإنّ الإمام السجّاد عليه السلام يجنّد لمطلع استهلال دعائه السياق الدقيق بما تكوّنه من مفردات متناسبة ومتجاوبة خاصّة بموضوعته لا تخرج عن علمه بالذات الإلهية المقدّسة، تعطي للمتلقي درساً تربوياً أخلاقياً جميلاً، وأسلوباً أدبياً بديعاً، عن كيفية استهلال دعائه إليه تعالى؟ وبأيّ مقدّمات دعائية يبدأ معه سبحانه؟ إذْ إنَّ أدعية الصحيفة السجادية كلّها في هذا الباب، نأتي بنماذج منها، استهلال دعائه (في يوم عرفة:) ((الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِيْنَ، اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ بَدِيْعَ السَّمَوَاتِ وَالاَرْضِ، ذَا الجَلَالِ وَالإِكْرَام، رَبَّ الرَّبَاب، وَإِلَهَ كُلِّ مَأْلُوْهٍ وَخَالقَ كُلِّ مَخْلُوقٍ وَوَارِثَ كُلِّ شَيءٍ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ عِلْمُ شَيءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيءٍ مُحِيْطٌ، وَهُوَ عَلَ كُلِّ شَيءٍ رَقِيْبٌ))[٤٧].

مناسبة الدعاء واضحة متعلقة بـ (الحجّ) وأعماله، وموضوعته مشرقة بـ (يوم عرفة) والوقوف فيه بين يدي الله عز وجل والتسليم المطلق له عز وجل، وإخلاص الإعتراف بألوهيته وربوبيته على كلّ شيء.

وإذا بدأنا بسياقات جمل المطلع الداخلية ودلالاتها، فنلاحظ أنّ الجملة الاستهلالية التي افتتح المطلع بها؛ هي (الحَمْدُ لله رَبِّن العَالَمِيْنَ) التي جاء فيها لفظ الجلالة (الله) مخصوصاً

باختصاص الحمد له تعالى وربوبيته على العالمين بين (الحَمْد)، و(رَبِّ العَالَمِيْنَ)، فالحمد المطلق لله تعالى، لأنه بربوبيته المنعم بآلائه ونعمائه على العالَمين، وهذا ما أثبته سياق الجملة، وتؤكّده الجملة التالية بعدها؛ ((اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ بَدِيْعَ السَّمَوَاتِ وَالاَرْضِ))، إذْ توسّط ضمير المخاطَب المطلوب العائد إلى الله عز وجل بين (اللَّهُمَّ)، و(الحَمْدُ بَدِيْعَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ)، فيسوق هذا التوسط دلالة السياق على اختصاص الحمد له تبارك وتعالى، ثمّ أنّ دلالة نداء الله باسم (البَدِيْع) وهو من أسمائه الفعلية وجّه معنى السياق إلى الجملة اللاحقة، (ذَا الجَلَالِ وَالإِكْرَام)، فإذا كان اللهُ بديعاً ذا الجلال والإكرام؟ فكيف لا يكون (رَبَّ الأَرْبَابِ)؟ (وإِلَهَ كُلِّ مَأْلُوْهٍ)؟ و(خَالقَ كُلِّ مَخْلُوقٍ)؟ و(وَارِثَ كُلِّ شَيءٍ)؟.

ومقصد معاني سياقات هذه الجمل ودلالاتها تأخذ دلالة السياق نحو خطاب الله بكلام لا يكلّم به سواه، وهو (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ)، المتداخلة نصيّاً في وحي التقديس القرآنيّ لله تعالى. ثُمّ تأتي سياقات الجمل الأخيرة من المطلع مثبتةً بدلالاتها سياق التقديس المطلق والإعتراف المنقطع النظير بالله سبحانه، ومكمّلة لملازماته الإشارية في تعزيز وحدة مطلع استهلال الدعاء مع موضوعته ومناسبته، وهي: (لَاْ يَعْزُبُ عَنْهُ عِلْمُ شَيءٍ) و(هُوَ بِكُلِّ شَيءٍ مُحِيْطٌ) و(هُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ رَقِيْبٌ) فالله عز وجل بتلك المعاني وبهذه الدلالات المقصود بها وحده هو بالفعل (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ).

أما دلالة السياق العام لمطلع الاستهلال، فتجلّيها المفردات التي وظّفها الإمام عليه السلام وشحن بها لبنات المطلع لتنير دلالة غرضه المقصود فيه، فجاء بالمفردات الدقيقة المختصّة بسياق الموقف في يوم عرفة الحجّ لله عز وجل، وهي: ما تعلّقت به وحده تبارك وتعالى، متعددة دلالياً، متوحّدة جمعاً له لا لسواه في توجّهها إليه؛ (الحَمْدُ – رَبّ – اللَّهُمَّ–بَدِيْع – ذَو الجَلَالِ وَالإِكْرَام–إِلَه – خَالقِ – وَارِث – لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ – مُحِيْطٌ – رَقِيْبٌ)، وارتبطت بأسمائه وصفات أفعاله عز وجل؛ (رَبِّ العَالَمِيْنَ – بَدِيْعَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ – رَبَّ الأَرْبَابِ – إِلَهَ كُلِّ مَأْلُوْهٍ – خَالقِ كُلِّ مَخْلُوقٍ – وَوَارِث كُلِّ شَيءٍ – وَلَاْ يَعْزُبُ عَنْهُ عِلْمُ شَيءٍ – بِكُلِّ شَيءٍ

مُحِيْطٌ – عَلَى كُلِّ شَيءٍ رَقِيْبٌ)، وهي بمعنى سياق الموقف العام هذا تتجه نحو حقل دلاليّ مشترك، على تفرّده بالربوبية وتوحّده بالألوهية، وهو ما يساير قصداً وغرضاً موضوعة الدعاء ومناسبته.

ومنها كذلك هذا الأُنموذج في مطلع دعائه (لأَهل الثُّغور:) ((اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ: وَحَصِّنْ ثُغُوْرَ الْمُسْلِمِيْنَ بعِزَّتكَ، وَأَيِّدْ حمَاتَهَا بقُوَّتكَ، وَأَسْبغْ عَطَايَاهُمْ مِنْ جِدَتكَ))[٤٨].

الموضوعة خاصّة بدعاء الإمام السجّاد (لأَهل الثُّغور)، ومناسبته:

المسلمون المرابطون بثُّغور الحرب من البلاد الملازمون لها لحفظها التي يخاف منها هجوم العدو[٤٩]. فبعد مفردة استهلال مطلعه (اللَّهُمَّ) المردوفة بالصلاة على أحبّاءالله وأمنائه وأبواب طلب الحوائج منه تعالى(مُحَمَّدٍ وَآلِهِ)، نلحظه عليه السلام منتقياً ألفاظ مطلع استهلاله بمعانيها الدقيقة، ومختاراً لمفرداته التي تخصّص دلالة المورد بمقصود الغرض موضوعةً ومناسبةً. ووظّف مفردة (التحصين –مع– العزّة) و(التأييد –مع– القوّة) و(السّبوغ –مع– الجِدَة)، فارتبطت معنوياً ودلالياً بغرض مطلع استهلال دعائه وموضوعته ومناسبته، إذْ عبّرت دلالة تركيب جمل مطلعه قبل مفرداته من طريق التكوين البنائي لها، ففي الجملة الأولى؛ وضع (ثُغور الْمُسْلِمِيْنَ) متوسطة بين (حَصِّنْ – بعِزَّتكَ)، التي تعطي بهذا الحصر المكاني في تركيب الجملة دلالة التحصين تركيباً مع المعنى ودلالته المندوبة. وفي جملته الثانية؛ جعل (حُمَاتَهَا) متوسطين كذلك بين (أَيِّدْ – بقُوَّتكَ)، التي تمنح بحصرها البنائيّ دلالة التأييد قبل كلّ شيء، وفي الثالثة؛ أبقى (عَطَايَاهُمْ) متوسطة أيضاً، بين (أَسْبغْ – جِدَتكَ)، التي تجود بدلالة السبوغ عبر هذا الحصر في التراتب النّصي.

ونلمح أنّ الأفعال جاءت بصيغة الأمر كلها؛ (حَصِّنْ – أَيِّدْ – أَسْبغْ)، التي تقرّر دلالة يقين اختصاص الله بها وقدرته عليها واستجابته لها، التي تتوافق مع (عِزَّتكَ – قُوَّتكَ – جِدَتكَ) في حقلٍ دلاليٍّ واحد. وتناغمت هذه الفاصلات (عِزَّتكَ – قُوَّتكَ – جِدَتكَ) مع بعضها مشكلةً إيقاعاً موسيقياً جميلاً، عزّز من سرعة إيصال الغرض المقصود. وبهذا

يتجلى واضحاً سعة التأثر والتأثير المتبادل بين موضوعة الدعاء ومناسبته ومطلع استهلاله.
ومن نماذجها أيضاً، استهلال مطلع دعائه (في الإلحاح:) ((يَا اللهُ الَّذِي لَاْ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيءٌ فِي الَارْضِ وَلَاْ فِي السَّمَاءِ، وَكَيْفَ يَخْفَى عَلَيْكَ يَا إِلَهِي مَا أَنْتَ خَلَقْتَهُ؟ وَكَيْفَ لَاْ تُحصِ مَا أَنْتَ صَنَعْتَهُ؟ أَوْ كَيْفَ يَغِيْبُ عَنْكَ مَا أَنْتَ تُدَبِّرُهُ؟ أَوْ كَيْفَ يَسْتَطِيْعُ أَن يَّهرُبَ مِنْكَ مَنْ لَاْ حَيَاةَ لَهُ إلَا برِزْقِكَ؟ أَوْ كَيْفَ يَنْجُو مِنْكَ مَنْ لَاْ مَذْهَبَ لَهُ فِي غَيْرِ مُلْكِكَ؟))[٥٠]. إنّ سياق الموقف هو مقام الإلحاح الذي جعل الإمام السجّاد عليه السلام أن يأتي بـ (يَا اللهُ) على أصلها، لأنّها تعطي دلالة الاستغاثة[٥١] وإلحاح السؤال ،فتحقّق غرض الدعاء، من هنا نلحظ أنّ مطلع دعائه محشّد بالاستفهامات المتكررة بأداة واحدة هي (كَيْفَ؟)، إذْ تكرر ذكرها خمس مرات عند إبتداء كلّ جملة من جمل المطلع:

كَيْفَ يَخْفَى عَلَيْكَ يَا إِلَهِي مَا أَنْتَ خَلَقْتَهُ؟كَيْفَ لَاْ تُحصِ مَا أَنْتَ صَنَعْتَهُ؟ كَيْفَ يَغِيْبُ عَنْكَ مَا أَنْتَ تُدَبِّرُهُ؟ كَيْفَ يَسْتَطِيْعُ أَن يَّهرُبَ مِنْكَ مَنْ لَاْ حَيَاةَ لَهُ إلَا برِزْقِكَ؟ كَيْفَ يَنْجُو مِنْكَ مَنْ لَاْ مَذْهَبَ لَهُ فِي غَيْرِ مُلْكِكَ؟

وهذا التّكرار يعبّر عن تلذذ إلحاح الإمام السجاد عليه السلام وشغفه بسؤال الدعاء إلى الله سبحانهُ، وطلب الحوائج منه، وقصده في الأمور والأحوال كلّها، والإمام عليه السلام هو عالم جوابات هذه الاستفهامات إلّا أنّه أنزلها منزلة مقصد الاستفهام القرآنيّ لاشتغاله البلاغيّ البديع، كما في استفهامه تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾[٥٢]، والله تعالى يعلم ما في يمينه هي العصا، ولكنه طول الحوار مع عبده المحبوب موسى عليه السلام ولقد عضّد ياء النداء (يَا) بمقطعها الصوتي المفتوح الطويل هذا التوجّه في الاستفهام، فأجراه مجرى ((وكَمْ سَائلٍ عَنْ أَمْرِهِ وَهوَ عَالِمُ))، كما نلمح الإمام قد أتى بالأفعال في الجمل الاستفهامية بصيغة المضارعية؛(يَخْفَى–تُحْصِي–يَغِيْبُ – تُدَبِّره – يَسْتَطِيْعُ – يَنْجُو)، التي تجتمع في دلالتها على الاستمرارية والتجدّد. فتدعم غرض الإلحاح الموحي بحبّ البقاء في مواصلة السؤال منه تعالى. ووظّف فعلين ماضويين هما (خَلَقْتَهُ – صَنَعْتَهُ) ليثبت بهما أنّ الله أزليّ الوجود،

وأكّد قدرته سبحانه على الخلق والصنع من خلال اسناد الفعلين إلى الضميرين العائدين إليه تبارك وتعالى .وكذا في سائر الضمائر العائدة إليه عز وجل في المفردات التي استعملها الإمام عليه السلام في بنية مطلع استهلاله؛ (عَلَيْهِ - عَلَيْكَ - عَنْكَ - مِنْكَ - برِزْقِكَ - مُلْكِكَ)، وهي تعمّق موضوعة الإلحاح ومناسبته، عبر دلالات سياقاتها التركيبيّة داخل جمل مطلع الاستهلال وخارجه في سياقه التعبيريّ العام.

الفاصلة في مطلع الاستهلال

اختصّ مصطلح (الفاصلة) بالنصوص النثرية، وكذا (القافية) بالأبيات الشعرية، وأما المصطلح الجامع بينهما فهو (القرار)، لكونه قراراً للكلمة التي تختم بها الفقرة النثرية -التي قد تكون جملة واحدة أو أكثر- أو السطر الشعريّ[٥٣].

وموضوعة (الفاصلة) هي ما أقَّرها علماء البلاغة في تعريفاتهم للسّجع إذْ قالوا: توافق أو «تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور»..[٥٤]، ومفرد الفواصل (الفاصلة) ،ويؤتى بها في النص الأدبيّ على وفق ما «يقتضيه المعنى، وتستريح إليه النفوس»[٥٥]. وعليه فالفاصلة -أو القرار- تشكلّ بإيقاع جرس أصواتها ووقعها نغماً استهلالياً خلّاباً، وعنصراً موسيقياً جميلاً، في جمل مطالع أدعية الإمام السجاد عليه السلام بصورةٍ خاصّة، وفي فِقَر أدعيته جميعها بصورة عامّة، ولا عجب فهي وليدة التعبير القرآنيّ الذي كانت الفاصلة إحدى أدواته الرئيسة في إيقاعها الصوتيّ الموحي المؤثّر عليه السلام، فضلاً عمّا تتمتّع به الفاصلات من مقومات وقيم جمالية تمنحها للنّص عندما يقوم المنشئ المعبّر بتوظيفها فيه، ويحسّ بها المتلقّي حال قراءتها أو استماعها، إذ تتساوى «الفواصل -آخر كلمة في الجملة- وتتماثل في موسيقاها. وهو -مع تقطيع جمل الدعاء في مواقف الطلب، وطولها النسبي في غيرها- يؤدي الغاية من تعميق الدعاء في النفس. ويكاد هذا أن يكون سِمة آلِ البيت عليهم السلام في الدعاء، لخصوبة أنفسهم، وغزارة معانيهم، وقدرتهم على صياغتها صياغةً لها خصوصيتها من حرارة الفكر وطواعية اللغة»[٥٧]. إذْ تأتي الفاصلة في آخر كلمة جمل مطلع الاستهلال متجاوبة مع

موضوعة الدعاء ومناسبته أيضاً وحال طلب الإمام عليه السلام من الله عز وجل، فبهذا يكون الإيقاع الصوتي الذي تشكله الفواصل في المقطع الاستهلاليّ متناسباً متناسقاً مع معنى موضوعة الدعاء ومناسبته -كما أشرنا سابقاً- وحاملاً بوعائه دلالات ما تجسّده مفرداته من تعانق وترابط وانسجام مع الموضوعة نفسها، وفي النتيجة يكونان كفّتين متساويتين إحداهما تحمل الأخرى. ومن نماذجها استهلال مطلع دعائه (في الإعتذار:) ((اللَّهُمَّ إني أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِنْ مَظْلُومٍ ظُلِمَ بِحَضْرَتِي فَلَمْ أَنْصُرْهُ، وَمِنْ مَعْرُوفٍ أُسْدِيَ إِلَيَّ فَلَمْ أَشْكُرْهُ، وَمِنْ مُسِيءٍ اعْتَذَرَ إِلَيَّ فَلَمْ أَعْذِرْهُ، وَمِنْ ذِي فَاقَةٍ سَأَلَنِي فَلَمْ أُوثِرْهُ، وَمِنْ حَقِّ ذِي حَقٍّ لَزِمَنِي لِمُؤْمِنٍ فَلَمْ أُوفِرْهُ، وَمِنْ عَيْبِ مُؤْمِنٍ ظَهَرَ لِي فَلَمْ أَسْتُرْهُ، وَمِنْ كُلِّ إِثْمٍ عَرَضَ لِي فَلَمْ أَهْجُرْهُ))[٥٨].

تساوت الفواصل بإيقاع وزنها التفعيليّ المتناغم مع حال دعاء الإمام السجاد وروحه التي كانت في مقام الاعتراف بنبذ الظلم وسوء الظنّ، وفي الوقت نفسه استحسان العدل وطلب استحباب الإنصاف في المواقف المتعددة التي حملتها فاصلة كلّ جملة من جمل مطلعه الاستهلاليّ، فجاءت فاصلة الجملة الأولى: (أَنْصُرْهُ)، حاملة الاعتذار إلى الله تعالى ممّن ظُلِم في حضرته ولم يدفعه عنه بنصره إياه. وأتت فاصلة الجملة الثانية: (أَشْكُرْهُ)، متكفّلة بتقديم الاعتذار من المعروف الذي أسدي إليه ولم يقابله بالشكر. وأخذت فاصلة الجملة الثالثة: (أَعْذِرْهُ)، على عاتقها الاعتذار ممّن أساء واعتذر إليه ولم يقبل منه. وأما فاصلة الجملة الرابعة: (أُوثِرهُ)، فجسّد صدق الاعتذار ممّن سألني العون على إنهاء فاقته وأنا قادر ولم أعطه ما عندي إيثاراً على نفسي. وأما فاصلة الجملة الخامسة: (أُوفِرْهُ)، فتعهدت بتقديم الاعتذار ممّن كان له حقّ وأنا متمكن من توفيره له ولم أفعل. وحتى تأتي فاصلة الجملة السادسة:

(أَسْتُرْهُ)، حاضنة الاعتذار من ظهور عيب أخي المؤمن أمامي ولم أبادر بستره .

وهكذا هي الأخرى فاصلة الجملة السابعة الأخيرة من المطلع (أَهْجُرْهُ)، التي ألزمت نفسها بالتعرّض للاعتذار من إثم عرض أمامي ولم أقم بهجره في رحاب علم الله سبحانه.

وهذا كلّه هو ما تجاوبت معه موسيقى هذه الفاصلات وعبّرت عن جوهره الدلالي وجسّدته بترنم مقاطعها الصوتية المتساوية، فضلاً عن إيقاع التوحّد الصوتي المتجانس الذي صاغه صوت الهاء المضمومة المسبوقة بصوت الراء الساكنة (رْهُ) في الفاصلات كلّها؛ إذْ إنّ صوت الهاء مهموس باعث للحفيف حال النطق به[٥٩] مع حركة الرفع الضمّة وما سبّبه سكون صوت الراء من وضوح لهمس الهاء مع ضمّها المرفوع تتجاوب بتصويرها الصوتي مع حال رفع طلب الاعتذار من الله (أَنْصُرْهُ – أَشْكُرْهُ – أَعْذِرْهُ – أُوْثِرْهُ – أُوَقِّرْهُ– أَسْتُرْهُ – أَهْجُرْهُ). وجمال القرار ووقعه مُتجلٍّ فيها بفعل إيقاع تساويا المتوازن المتوازي وزناً وتقفيةً[٦٠]، إذْ إنها تجاوبت بما نبعت موسيقاها من إيقاع متناغم مع فكرة مطلع دعاء الإمام عليه السلام وموضوعته، زيادة على ما أدّته صوتياً (فَلَمْ) المتصلة بفاء الجواب في تعزيز الوقع الإيقاعي من خلال تكرارها (سبع مرّات) بجوار الفاصلة في فِقَر مطلع الدعاء كلّها. وهو ما ابتغاه الإمام السجاد عليه السلام من تقديم الاعتذار بأجمل إيقاعٍ موسيقي، وأبدع تصوير، وأرقى عرض لدرس أدبيّ أخلاقيّ في ثقافة الاعتذار نفسه عبر هذه الفاصلة السجّادية .

ومن أمثلة نماذجها أيضاً، مطلع دعائه (لدخول شهر رمضان:) ((الحَمْدُ لله الَّذي هَدَانَا[لِحَمْدِه]، وَجَعَلَنَا مِنْ [أَهْلِه]، لنَكُوْنَ لِإِحْسَانِه مِنَ [الشَّاكِرِيْنَ]، وَلِيَجْزِيْنَا عَلَ ذَلكَ جَزَاءَ [المُحْسِنِيْنَ]،وَالْحَمْدُ لِ الَّذي حَبَانَا [بدِيْنِه]، وَاخْتَصَّنَا [بمِلَّتِه]، وَسَبَّلَنَا فِي سُبُلِ [إِحْسَانِه]، لنَسْلُكَهَا بمَنِّه إِلَى [رِضْوَانِه]، حَدَاً يَتَقَبَّلُهُ [منَّا]، وَيَرْضَ بِه عَنَّا))[٦١]. نلحظ أنّ الفاصلة في الفقرتين الأولى والثانية مجيؤها؛ (متطرّفة = لِحَمْدِه / أَهْلِه)، أي: اختلفت بالوزن وتوافقت بـ(الرَّوي أو التقفية) ويطلق عليها الناقصة[٦٢]، وكذا هي الحال في الخامسة والسادسة؛ (متطرّفة = بدِيْنِه / بمِلَّتِه). أما في الثالثة والرابعة فقد كانت؛ (متوازنة متوازية = الشَّاكِرِيْنَ / المُحْسِنِيْنَ)، أي توافقه وزناً ورَوِيَّاً وكذلك فقد توازنت وتوازت في السابعة والثامنة؛ (متوازنة متوازية = إِحْسَانِه / رِضْوَانِه)؛ والتاسعة والعاشرة (مِنَّا / عَنَّا).

إنّ هذا التعاقب الموسيقي الذي شكّلته الفاصلة المتطرّفة والفاصلة المتوازنة المتوازية في

فِقَر مطلع الدعاء، يصوّر سرور الإمام السجّاد عليه السلام واستبشاره وبشراه مع ما يصاحبها من تشوّق الانتظار وحفاوة الإقبال لشهر الله العظيم الذي اختصّه لنفسه عز وجل، فكان له الأثر البالغ في روح الإمام عليه السلام ونبضات قلبه وعلى نفسيته، إذْ تجلّى واضحاً وظهر جلياً في تكرار صوت روي موحّد مشحون بطاقة الهدوء النفسي والاطمئنان القلبي والتوجه الروحي إلّا فاصلات: (لِحَمْدِهِ – أَهْلِهِ – بِدِيْنِهِ – بِمِلَّتِهِ – إِحْسَانِهِ –رِضْوَانِهِ)، وتكرار هذه الضمائر العائدة إليه تعالى، تجسّد تسليم الإمام المطلق في شهر الله بالعودة الصادقة إليه سبحانه، في حين عند دعائه لطلب الشكر لإحسانه وجزيل جزائه وتقبّل الحمد منه والرضا به، أتت الفاصلة بروي صوت النون في الفاصلات الأربع المتبقية؛ (الشَّاكِرِيْنَ – المُحْسِنِيْنَ – مِنَّا – عَنَّا)، وهو صوت مجهور متوسط بين الشدة والرخاوة سريع التأثر بما يجاوره من أصوات[٦٣]، ففي الفاصلتين؛ (الشَّاكِرِيْنَ / المُحْسِنِيْنَ) تجاور صوت النون من صوت الياء الساكنة قبلها فجعلها متوسطة الظهور نطقاً واختفاء غنّتها، وهذا يتجاوب مع دلالة انتظار استجابة طلب دعاء الإمام عليه السلام إلى أن يكونوا من (الشَّاكِرِيْنَ)، والشغف بجزاء (المُحْسِنِيْنَ).

أما في الفاصلتين الأخيرتين من مطلع الاستهلال؛ (مِنَّا – عَنَّا) فقد اجتمعت نونان متجاورتان الأولى ساكنة والثانية متحركة بالفتح (نْ نَـا = نَّا)، تصدر عنهما غُنَّةٌ تؤدي إلى إطالة الصوت المشدّد الواضح، وهذه الغُنَّة مع النون المشدّدة تهب نغمة موسيقية محبّبة إلى الأُذن[٦٤]. زيادة على ما يضيفه المقطع الصوتي المفتوح الطويل من النون المفتوحة والألف (نَا = نَ + اْ) إلى الفاصلتين من إيقاع نغميٍّ يَنْدغِم مع دلالة الاستجابة منه سبحانه لقبول الحمد له والرضا لما يقومون به من أعمال التحميد في شهره الخاصّ به شهر رمضان المبارك الذي هو ليلة قدْرهِ خيرٌ من ألف شهر ، وفيوضات جوده وكرمه عز وجل فيه يضاعفها أضعافاً كثيرة. هذا ما أدّته الفاصلة في مطلع دعاء الإمام السجاد عليه السلام من وظيفة حمل دلالات المعنى لفِقَره كلّها، وما يعبّر الإمام به في رحاب العرفان والحُبّ الإلهيّ وموقفه في

ساحة التقديس والربوبية من سؤاله ودعاء إليه لا من غيره .

وهكذا هي نماذج الفاصلات الأُخَر في سائر أدعية الصحيفة السجادية، التي تنماز بنظامها الموسيقي وما يضمّه من ثراء دلالي يحمله جرس نغمها الإيقاعي، النابع المتأثر بفاصلة التعبير القرآنيّ، التي ترعى أقطاب دائرة التلقّي جميعهم، والإنسان بعموم طبيعته البشرية، والعربيّ بخصوص سليقته الأدبية، يحبّ «الافتتاح الجميل ،من الصباح الصحو، والتحية العذبة، والوجه البشوش، والبسمة الرائقة، واللقاء الودود؛ فيَفيض عليه شعور مريح، وتفاؤل غامر. لا يقتصر ذلك على زمان معين ،أو مكان محدد، أو وقائع حسية، بل يتجاوزها كلّها إلى ما يثير في جوانحه طرباً لممارسته، ويحيج فيه شوقاً لمتابعته»[٦٥].

الخاتمة

لقد أسّس الإمام عليّ بن الحُسين عليه السلام للإنسانية كافة وللأُمة الإسلامية كلّها ،من خلال نصوص أدعية الصحيفة السجّادية المباركة، شرعةً ومنهاجاً في رعاية أدب الخطاب مع الله والدعاء إليه عز وجل، النابع من عمق تعبير النّص القرآنيّ، المتجذّر في كينونة لغتهِ الإلهية وأسلوبه البلاغيّ، عَبْر ما علّمنا إياه فيها عن كيفية البدء بالدعاء ومقدماته وأساليب استهلاله المتعددة، ومفردات فواتحه الاستهلالية المتنوعة، ونظام فاصلاته الموسيقية المشحونة بالطاقة الإيقاعية المتلونة، حري بالأدباء أن ينهلوا من أدبها، وبالبلغاء أن يرتشفوا رحيق ضرب بلاغتها، بالعلماء أن يغترفوا من نور علومها.

الهوامش

١. لسان العرب: ابن منظور (ت٧١١هـ): مادة هلل.
٢. ينظر: الاستهلال فنّ البدايات في النّص الأدبي: ياسين النصير: ٢٣-٢٢.
٣. المنطق: الشيخ محمّد رضا المظفر: لدى موضوعة؛ (نظم الأقوال الخطابية وترتيبها:) ٣٢١/ ٣.
٤. ينظر: نفسه: ياسين النصير: ١١، و٢١. وينظر: بنِية النّص القرآنيّ: د. إبتسام السيد عبد الكريم المدنيّ ٢٨٨ وما بعدها. وينظر: بنية السرد في القصص الصوفي: ٨٦. وينظر: جماليات المقالة عند د. علي جواد الطاهر: ٨٧.
٥. ينظر: الاستهلال فن البدايات في النص الأدبيّ: ٣١. وينظر: فواتح سور القرآن: د. حسين نصّار: ٥ وما بعدها.
٦. بنِية النّص القرآنيّ: د. إبتسام السيد عبد الكريم المدنيّ٢٨٩ :.
٧. المتصفّح للصحيفة السجادية، يلمح جليّاً ما ذكرته الدراسة وذهبت إليه.!
٨. ينظر: الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: اسحاق العَشّي: ٥١ وما بعدها. وينظر: الأدب السياسيّ الملتزم في الإسلام: د.حسن عبّاس وزميله: ١٥٩. وينظر: التّصوّف الإسلاميّ في الأدب والأخلاق: د.زكي مبارك: ٥٣ وما بعدها.
٩. تنظر: الصحيفة السجّادية: الأدعية ذوات العدد، والصفحة؛(١-ص٩١)، ٢-ص٥٢)، (٦-ص٩٣)، ٣٥-ص٩٣١)، ٤٧-ص١٨٥).
١٠. تنظر: (سورة الحمد/ الفاتحة)، و(الأنعام)، ودعاء (الأعراف: ٤٣)، ودعاء (يونس: ١٠)، ودعاء (إبراهيم: ٤٠)، ودعاء (النحل: ٧٦)، ودعاء (الإسراء: ١١١)، و(سورة الكهف) ،ودعاء (المؤمنون: ٢٨)، ودعاء (النمل: ٩٣-٥٩-١٥)، ودعاء (العنكبوت: ٦٣)، ودعاء (لقمان: ٢٥)، و(سورة النبأ)، واستهلال (فاطر: ٣٤-١) ودعاؤها، ودعاء (الزمر: ٩٢- ٧٥-٧٤)، ودعاء (غافر: ٦٥).
١١. نقلاً عن سنن أبي داود: ٢٦١/ ٤-ح٤٨٤٠. وسنن ابن ماجة: ٦١٠/ ١-ح١٨٩٤.
١٢. نقلاً عن الكافي: ٥٠٤/ ٢-ح٦.
١٣. رياض السالكين في شرح صحيفة سيّد الساجدين: السيد علي خان المدنيّ الشيرازيّ (ت٢٢٤/ ١ :)هـ١١٢٠.
١٤. الصحيفة السجادية: (١-ص١٩).
١٥. قراءة لغوية ونقدية في الصحيفة السجادية: أ.د.كريم حسين الخالديّ وزميلته: ١٢٧.
١٦. البقرة: ٢٥٥.
١٧. شرح الصحيفة السجادية الكاملة: السيد محمّد باقر الداماد (ت٧٦ :)هـ١٠٤١.
١٨. نور الأنوار في شرح صحيفة سيّد الأخيار: السيّد نعمة الله الجزائريّ (ت٢٤ :)هـ١١١٢. وينظر: رياض السالكين في شرح صحيفة سيّد الساجدين: السيد علي خان المدنيّ الشيرازيّ (ت٢٣٠/ ١ :)هـ١١٢٠ وما بعدها.
١٩. الصحيفة السجّادية: (٦-ص٣٩).
٢٠. تنظر: الصحيفة السجّادية: الأدعية ذوات العدد، والصفحة؛(٣-ص٧٢)، (٤-ص١٣)، (٨-ص٥٤)، (٩-٧٤)، ١٠-ص٩٤، ١٢-ص٣٥، ١٣-ص٧٥، ١٥-ص٥٦، (١٦-ص٧٦)، ١٧-

ص٣٧)، ١٨-ص٧٧، ١٩-ص٩٧، ٢٠-ص١٨، (١٢-ص٩٨)، ٢٢-ص٣٩، ٢٣-ص٧٩، ٢٤-ص١٠١، ٢٥-ص٥٠١، ٦٢-ص٩٠١، ٢٧-ص١١١، ٢٨-ص٧١١، ٢٩-ص٩١١، ٣٠-ص١٢١، (٣١-ص٣٢١)، ٣٢-ص٩٢١، ٣٣-ص٥٣١، ٣٤-ص٧٣١، ٣٦-ص١٤١، (٣٧-ص٣٤١)، ٣٨-ص٨٤١، ٣٩-ص٩٤١، ٤٠-ص٣٥١، ٤١-ص٥٥١، (٤٢-ص٧٥١)، ٤٥-ص١٧١، ٤٨-ص٣٠٢، ٥٠-ص٢١٥.

٢١.آل عمران: ٢٦.

٢٢.الزمر: ٤٦.

٢٣ الصحيفة السجّادية: (٩-ص٤٧).

٢٤.قراءة لغوية ونقدية في الصحيفة السجادية: ٢٤وما بعدها. وينظر: نور الأنوار في شرح سيّد الأخيار: ٦٤.

٢٥.رياض السالكين في شرح صحيفة سيّد الساجدين: ٤٥٤/ ١.

٢٦.الصحيفة نفسها: (٢٩-ص١١٩).

٢٧.تنظر: الصحيفة السجّادية: الأدعية ذوات العدد، والصفحة؛(٥-ص٥٣)، ٧-ص٣٤، (١١-ص١٥)، ١٤-ص١٦، ٤٦-ص١٨١، ٥٢-ص١٢٢، ٥٤-ص٢٢٧.

٢٨.الصحيفة السجّادية: (٥٤-ص٢٢٧).

٢٩.تقنيات المنهج الأسلوبي في سورة يُوسف: د.حسن عبد الهادي الدجيليّ١٠٧ :.

٣٠.لقد أشارت الدراسة إلى أنّ المناجاة وأدعية الأيام ليست من متن الصحيفة السجادية المحقّق . ينظر: الهامش ذي العدد(١).

٣١.والسور السبع هي: الإسراء، الحديد، الحشر، الصّف، الجمعة، التغابن، الأعلى. ينظر: بنِية النّص القرآنيّ٢٩٤ :.

٣٢.الصحيفة السجّادية: الدعاء ذو العدد والصفحة: (٤٣-ص١٦٣).

٣٣.الحديقة الهلالية شرح دعاء الهلال من الصحيفة السجّادية: العلامة الشيخ البهائيّ (ت١٢٥ :)ه١١١٠.

٣٤.مجمع البيان في تفسير القرآن: الطبرسيّ (ت٨٤٥ه): ١/ ٧٣.

٣٥.الحديقة الهلالية ١٢٥ وما بعدها. ونور الأنوار ٢٩٩. ولوامع الأنوار العرشية في شرح الصحيفة السجادية: السيد محمّد باقر الموسويّ الشيرازيّ (ت٣٣٢١ه) ٤/ ٦٤٩ وما بعدها. وينظر: رياض السالكين: ٥/ ٥٢١.

٣٦.بنِية النّص القرآنيّ٢٩٤ : وما بعدها.

٣٧.الصحيفة السجّادية: دعاء(٥١-ص٢١٧).

٣٨.رياض السالكين: ٣٣٨/ ٧.

٣٩.الصحيفة نفسها: دعاء(٤٩-ص٢١١).

٤٠.الصحيفة السجّادية: دعاء(٥٣-ص٢٢٥). في بعض نسخ الشروح؛ (المُنقَطَعُ بِي) على البناء للمفعول بضمّ ميمه وبفتح ما قبل آخره، فهو مُنقطَعٌ به، إذا انقطع سفره فصار مُنقطَعاً به . ينظر: شرح السيد الداماد: ٤٣٢.

٤١.ورد الدعاء بجملة (رَبِّن) في التركيب القرآنيّ أكثر من خمسين مرّة، بسياقات متعددة ودلالات منوعة، في مقام ربوبية الله عز وجل المطلقة.
٤٢ ينظر: تقنيات المنهج الأسلوبي: ١١٠ وما بعدها.
٤٣.قراءتان في النَّص الدينيّ – الآليات والمعنى –: د.أحمد رسن: ١٥٦.
٤٤.رياض السالكين: ٣٩٨/ ٧.
٤٥.رياض السالكين: ٣٩٧/ ٧.
٤٦.ينظر: تقنيات المنهج الأسلوبيّ١١٢ :.
٤٧.الصحيفة السجّادية: الدعاء ذو العدد والصفحة: (٤٧-ص١٨٥).
٤٨.الصحيفة نفسها: (٢٧-ص١١١).
٤٩.ينظر: رياض السالكين: ١٨٣/ ٤.
٥٠.الصحيفة نفسها: (٥٢-ص٢٢١).
٥١.ينظر: جواهر البلاغة: السيد أحمد الهاشميّ: ٦٥.
٥٢.طه: ١٧.
٥٣.ينظر: البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلاميّ: د.محمود البستانيّ١٣٩ :.
٥٤.المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين نصر الله بن الأثير (ت٧٣٦هـ): ٢٧٥/ ١.
وينظر: الفواصل: د.حسين نصّار: ١٢ وما بعدها.
٥٥.الفواصل: د.حسين نصّار: ١٩٣.
٥٦.ينظر: الأثر القرآنيّ في نهج البلاغة: عليّ عباس الفحّام: ٢١٩.
٥٧.دراسات في التراث الإسلاميّ: د.عبد الكريم الأشتر: ٥٦ وما بعدها.
٥٨.الصحيفة السجادية: (٣٨-ص١٤٧). ولقد وردت قراءة أخرى بالتضعيف؛ (أُوَفِّنْهُ).
٥٩.الأصوات اللغوية: إبراهيم أنيس: ٨٩.
٦٠.ينظر: جواهر البلاغة: ٢٤٩ وما بعدها.
٦١.الصحيفة نفسها: (٤٤-ص١٦٥).
٦٢.ينظر: الفواصل: ١٤١.
٦٣.ينظر: الأصوات اللغوية: ٦٧ وما بعدها.
٦٤.نفسه: ٧٣.
٦٥.فواتح سور القرآن: ٥.

المراجع

القرآن الكريم.
١.الأثر القرآنيّ في نهج البلاغة: عبّاس عليّ الفحّام، العتبة العلوية المقدّسة، العراق ،النجف الأشرف ٢٠١١م.
٢.الأدب السياسيّ الملتزم في الإسلام: د.حسن عبّاس وزميله: دار التعارف للمطبوعات (د-م-ط-ت.)٣. الإمام علي بن الحسين عليه السلام والخلافة الإسلامية: إسحاق العَشّي، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان ١٩٨٧م.
٤.الاستهلال فنّ البدايات في النص الأدبيّياسين النصير، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٩٣م.
٥.الأصوات اللغوية: إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ط٤، ١٩٧١م.
٦.البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلاميّ د.محمود البستانيّ، دار الفقه للطباعة والنشر، مطبعة سليمان زاده، إيران، ط١، .هـ١٤٢٤
٧.بنية السرد في القصص الصوفي: د.ناهضة ستّار، منشورات اتحاد الكتاب العرب ،دمشق ٢٠٠٣م.
٨.بنية النّص القرآنيّ: د.إبتسام السيد عبد الكريم المدنيّ، دار النهضة العربية ،بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٠م.
٩.التّصوّف الإسلاميّ في الأدب والأخلاق د.زكي مبارك منشورات المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، بيروت (د-ط.)
١٠.تقنيات المنهج الأسلوبي في سورة يُوسف: د.حسن عبد الهادي الدجيليّ، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ،العراق، ط١، ٢٠٠٥م.
١١.جماليات المقالة عند د.علي جواد الطاهر: د.فاضل عبود التميمي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ط١، ٢٠٠٧م.
١٢.جواهر البلاغة: السيد أحمد الهاشميّ، مكتبة طريق المعرفة، منشورات محمّد علي بيضون، بيروت، ط المنقّحة ،٢٠٠١م.
١٣.الحديقة الهلالية شرح دعاء الهلال من الصحيفة السجّادية: العلامة الشيخ البهائيّ (ت١١١٠هـ) تحـ: السيّد علي الموسويّ الخرسانيّ، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم المشرّفة، ط١، ١٤١٠م.
١٤.دراسات في التراث الإسلاميّ: د.عبد الكريم الأشتر، المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية بدمشق، كتاب الثقافة الإسلامية ٦، دمشق، سوريا ،ط١، ٢٠٠١م.
١٥.رياض السالكين في شرح صحيفة سيّد الساجدين: السيد علي خان المدنيّ الشيرازيّ (ت١١٢٠هـ) تحـ: السيّد محسن الحسينيّ الأمينيّ، مؤسسة النشر الإسلاميّ، إيران، ط٥، ٧٢٤١هـ.
١٦.شرح الصحيفة السجادية ا لكا ملة : ا لسيد محمّد باقر الداماد (ت١٤٠١هـ) تحـ:السيّد مهدي الرجائيّ، الناشر بهار قلوب، إيران، ط٢، ١٤٢٢هـ.
١٧.الصحيفة السجّادية الكاملة مع الدليل الموضوعيّ والمعجم اللغويّ والفهارس تحـ: علي أنصاريان، الناشر سفارة الجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق ١٩٩٩م.
١٨.فواتح سور القرآن: د.حسين نصّار ،مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط١، ٢٠٠٢م.
١٩.الفواصل –إعجاز-: د.حسين نصّار ،مكتبة مصر٣ شارع كامل صدقي ،الفجالة، ط١، ١٩٩٩م .
٢٠.قراءتان في النَّص الدينيّ –الآليات والمعنى-: د.أحمد رسن، دار الفيحاء للطباعة والنشر، مطابع بيروت، ط١، ٢٠١٣م.
٢١.قراءة لغوية ونقدية في الصحيفة السجادية أ.د.كريم حسين الخالديّ وزميلته، دار صفاء

للنشر والتوزيع، عمان / الأردن ،ط١، ٢٠١٠م.
٢٢.لسان العرب العلامة ابن منظور (ت٧١١هـ) تحـ: محمّد الصادق العبيديّ وزميله دار إحياء التراث العربيّ، مؤسسة التأريخ العربيّ، بيروت، ط٣، (د-ت.)
٢٣.لوامع الأنوار العرشية في شرح الصحيفة السجادية: السيد محمّد باقر الموسويّ الشيرازيّ (ت١٢٣٣هـ) تحـ: مركز البحوث الكومبيوترية، حوزة أصفهان العلمية، مؤسسة الزهراء عليها السلام الثقافية الدراسية مطبعة عترت، أصفهان، إيران ،ط٢، ١٣٨٥هـ.
٢٤.المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين نصر الله بن الأثير (ت٦٣٧هـ) تحـ: كامل محمّد عويصة، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
٢٥.مجمع البيان في تفسير القرآن: الطبرسيّ (ت٥٤٨هـ) تحـ: السيّد هاشم الرسوليّ المحلّاتيّ، دار إحياء التراث، مؤسسة التأريخ العربيّ، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٨م.
٢٦.المنطق: الشيخ محمّد رضا المظفّر، مؤسسة الرافد للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة منقّحةٌ وجديدة، العراق، ط١، ٢٠٠٩م .
٢٧.نور الأنوار في شرح صحيفة سيّد الأخيار السيّد نعمة الله الجزائريّ (ت٢١١١هـ) الناشر آسيانا، مطبعة اميران، قم، إيران ،ط١، ٧٢٤١هـ.